شكـر النعمة فـى ضوء القرآن الكريم

دراسة تحليلية

إعداد الدكتورة

عايدة أحمد محـمود مخلص

مدرس التفسير وعلوم القرآن بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

سورة إبراهيم آية ٧

المقدمة

الحمد لله ذي الفضل والإنعام، والمنة والإحسان، والشكر له ذي الجلال والإكرام، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبأمره تقوم الأرض والسماوات، وبرحمته وعنايته ولطفه تحيا كل الكائنات.

والصلاة والسلام على النبي العابد التواب، الشاكر الأواب، القائم كل ليلة يذكر ربه في المحراب، حتى اشتكت قدماه الضر من ورم، وحين أشفق عليه أهله. أعلن على مسامع الدنيا كلها أنه يريد أن يكون عبداً شكوراً لربه ومولاه المنعم المتفضل، وصلاة وسلاماً على آله الطيبين الأطهار، وصحبه الكرام الأبرار، ومن سار على هديه ما دام الليل والنهار، وسلم تسليماً كثيراً أما بعد....

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، وقد جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم . فأقام به على خلقه الحجة.

وإن علم التفسير من أجلِّ العلوم وأنفعها، وأعظمها، وأشرفها. لأنه علم يتصل بأشرف كتاب، وأجل خطاب.

ومن المعلوم أن شرف العلم يعرف بشرف المعلوم، وإن التفسير الموضوعي هو منهج هام، وفن جديد من مناهج وفنون التفسير القرآني، وإن من ألوانه الهامة والضرورية التفسير الموضوعي لموضوع قرآني جليل.

ولقد وقع اختياري على موضوع هام، وجدير بالبحث والتأمل والكتابة وهو (شكر النعمة في ضوء القرآن الكريم).

أهمية الموضوع:

لقد عرض القرآن الكريم هذا الموضوع عرضاً رائعاً استعرض فيه أصنافاً وألواناً من النعم الدينية والدنيوية والتي لا حد لها ولا حصر، وحثنا على القيام بشكرها، وأبان لنا عن أسباب دوام هذه النعم، وأخبرنا أن الإنسان لا يستطيع أن يحصي هذه النعم ولا أن يعرفها كلها، قال تعالى "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها"(١).

١) سورة إبراهيم آية ٣٤.

وإن كثرة النعم تدل على عظيم عناية الله تعالى، ورحمته بالإنسان، إذ سخر له كل ما في السماوات والأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.
لذلك كان عرض هذه النعم من أعظم ما يربط الإنسان بربه، ويشعره بهذه العناية والرحمة. وإن شكر هذه النعم والإقرار بها ونسبتها لصاحبها وواهبها يجعل الإنسان دائم الصلة بربه. لذلك يعرض هذا البحث لجانب من هذه النعم، ويصوغها في موضوع واحد متكامل، مع ربط هذه النعم بشكر من أنعم بها علينا وهو الله الكريم الوهاب.

أسباب اختيار الموضوع:

لقد كان لاختيار هذا الموضوع والبحث فيه أسباب عدة منها:

أولا: تأملت في أحوال الناس فوجدت أمراً عجيباً ! وجدت أكثر الخلق يعيشون مع النعمة دون ذكر المنعم، فأردت أن أقف أمام عظمة المنعم ومكانته من النعمة ليلتفت إلى ذلك الغافلون، وليزداد الشاكرون من شكره تعالى.

ثانيا: في هذا الزمن الذي طغت فيه الحياة المادية على معظم البشر فأصبحوا يرفلون في نعم الله صباح مساء دون أن يلتفتوا إلى الواجبات المترتبة عليهم من شكر المنعم جلَّ في علاه، فأردت أن أقدم هذا الجهد المتواضع لعلّهم يستيقظون من سباتهم ويعرفون ما عليهم كما عرفوا ما لهم.

ثالثا: أردت إيضاح هذا الموضوع القرآني وإظهاره إلى النور في ثوب جديد.

رابعاً: إثراء الدراسات القرآنية بهذا التفسير الموضوعي، وإبراز القيمة العلمية له

خطة البحث:

ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقسم إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، أما المقدمة فذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطته، ومنهج البحث فيه، وأما التمهيد فعرضت فيه مفهوم كل من الشكر، والنعمة، وأوجه استعمالاتهما في القرآن الكريم وأهمية شكر النعمة ومنزلته في القرآن الكريم.

وأما المبحث الأول فأبرزت فيه النعم الدينية ويندرج تحته مطالب:

المطلب الأول: نعمة الهداية للإسلام.

المطلب الثانى: نعمة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثالث: نعمة التيسير فى الفرائض والتكاليف

وأما المبحث الثاني فقد اشتمل على النعم الدنيوية ويندرج تحته مطالب:

المطلب الأول: نعمتا الليل والنهار

المطلب الثانى: نعمة خلق الأرض

المطلب الثالث: نعمة الماء.

المطلب الرابع: نعمة تسخير البحر بأنواع النعم.

المطلب الخامس: نعمة تسخير الأنعام.

المطلب السادس: نعمة حصول الرزق للعباد.

المطلب السابع: نعمتا السمع والبصر

وأما الخاتمة فعرضت فيها أبرز ما انتهيت إليه من نتائج مثمرة أفرزها هذا البحث

منهج البحث

ولقد كان منهجي في هذا البحث هو منهج الاستقراء والاستنباط والتحليل، وقد اتبعت فيه الخطوات التالية:-

١- جمع الآيات القرآنية التي تتصل بهذا الموضوع وقراءتها وتدبرها.

٢- التزمت في هذا البحث بتناول الآيات ذات الصلة بموضوع الشكر، وما له علاقة بالموضوع من آيات أخرى كآيات النعمة، بحسب الحاجة لذلك.

٣- الاستعانة بكتب التفسير الممكنة فيما يختص بتفسير الآيات القرآنية المتصلة بالموضوع

٤ - ذكر سبب نزول الآية أو الآيات- إن وجد- لأنه يساعد على تفسير وفهم الآية الكريمة.

٥-المناسبة بين الآية أو الآيات وما قبلها، حتى أستطيع ربط الآيات ببعضها وإظهار صلتها وتآخيها، والربط بين صدر الآية وعجزها لإبراز مدى تعانقها وتناسبها وتلاؤمها

٦ -الاستعانة بكتب السنة في تخريج الأحاديث الشريفة، مع شرح بعض الألفاظ التي يصعب معرفتها.

٧ – الرجوع إلي بعض المعاجم اللغوية المتصلة بالموضوع.

٨- أسندت كل قول لقائله إن كان النقل نصا مع الإشارة إلي الاختصار من عدمه، فمن بركة العلم أن يضاف إلى قائله.

٩- توضيح العلاقة بين النعمة وشكرها من خلال الكلام على سر ختام الآيات بذلك.

هذا ولا أدعي في بحثي تفردا أو تميزا، فقد كنت فيه عالة على أسلافنا وعلماؤنا وأئمتنا وجهدي فيه وإن تضاعف فهو قليل، وإذا كان فيه من صواب وتوفيق فهو من الله تعالى وحده، وإليه يرجع الفضل كله، وله الحمد في الأولى والآخرة، وإن كان فيه من خطأ أو سهو أو تقصير فهو مني ومن الشيطان، وحسبي إخلاص النية، وأسأله الله تعالى أن يبارك في هذا البحث وأن يتقبله بقبول حسن، وأن ينبت كاتبته نباتاً علميا حسنا ؛ لأنني – والله – ما أردت إلا الخير والفلاح لكل عباد الله في الدنيا والآخرة، وأسأل الله عز وجل أن يديم علي المسلمين نعتمه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه ولي النعمة وهو الهادي إلي سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

التمهيد

شُّكْرُ النِّعْمَةُ من أجل وأطيب الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم، وهي من مكارم الأخلاق.

وقبل الدخول فى غمار البحث يجدر بى أن أعرِّج على تعريف الشكر عند أهل اللغة والاصطلاح ثم أتبع ذلك ببيان مفهوم النعمة فأقول والله المستعان:

تعريف الشكر في اللغة:

" **الشين والكاف والراء أصول أربعة متباينة بعيدة القياس:**

فـالأول الـشُّكْرُ: الثنـاءُ علـى المُحْسِنِ بمـا أَوْلاكَـهُ مـن المعـروف ، يقـال شَـكَرْتُه وشَـكَرْتُ لـه. يقال شكرت الله وشكرت لله وشَكَرْتُ بـالله وكذلك شكرت نعمة الله وتَـشَكَّرَ لـه بـلاءَه كـشَكَرَهُ وتَـشَكَّرْتُ لـه مثـل شَـكَرْتُ لـه، ورجـل شَـكورٌ كثيـر الشُّكْرِ(١).

وفـى القـاموس: الـشكر بالـضم: تـدل علـى الثنـاء علـى المحـسن، والمجـازاة، وعرفان الإحسان، يقال: شَكَرَهُ وشَكَرَ له يَشْكُرُ شُكْراً وشُكُوراً وشُكْراناً

فهـو عِرْفـانُ الإحـسان ونَـشْرُه ولا يكـونُ إلاَّ عـن يَـدٍ ومـن اللَّـهِ: المُجـازاةُ والثَّنـاءُ الجميلُ شَكَرَهُ وله شُكْراً وشُكُوراً وشُكْراناً(٢).

والثـاني: الامتلاء والغزر فـي الـشيء. يقال حلوبـة شكرة إذا أصـابت حظـا مـن مرعى فغزرت. ويقال: أشكر القوم، وإنهم ليحتلبون شكرة، وقد شكرت الحلوبـة. ومن هذا الباب: شكرت الشجرة، إذا كثر فيئها.

والثالـث: الشكير من النبات، وهو الذي ينبت من ساق الشجرة، وهـي قضبان غضة. ويكون ذلك في النبات أول ما ينبت. **والرابع:** الشكر، وهو النكاح(٣).

وقال الراغب: قيل: وهو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف، ويضادّه الكفر، وهو: نسيان النّعمة وسترها، ودابّة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل:

---

١) ينظر معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس المتوفى سنة: ٣٩٥هـ (٣ / ٢٠٨) تحقيق: عبد السلام محمد هارون نشر/ دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢) ينظر القاموس المحيط لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ ص ٤١٩ ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، نشر / مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة الثامنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

٣) ينظر معجم مقاييس اللغة (٣ / ٢٠٨).

أصله من عين شكرى، أي: ممتلئة، فَالشُّكْرُ على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه([1]).

وقال القرطبى: وأما الشكر فى اللغة الظهور من قوله: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف"([2]).

والمدقق الممعن النظر فى مفردات هذه المادة ، ومعانيها التى ذكرت معها يمكن أن يقول: إن كل مشتقات هذه المادة يرجع إلى معنى واحد ، وهو الكثرة والزيادة أو ظهور الكثرة والزيادة ، فالدابة الشكور إنما وصفت بذلك لكثرة لحمها وزيادته لا سيما إذا كان قليل العلف ، والحلوبة الشكرة التى كثر لبنها وزاد ، وشكر النبات والشجر كثرة أغصانها الداعى إلى كثرة ثمارها وأكلها ، وسمى النكاح شَكْراً ؛ لأنه سبب كثرة الناس وزيادتها ، وأما العين الشكرى فهى التى يكثر فيها الماء ويزداد إلى حد الامتلاء ، وشكر الناس النعمة سبب زيادتها وكثرتها ، وشكر الله زيادة الأجر وكثرته إلى أضعاف كثيرة ، وأما كون الشكر مقلوب الكشر الذى هو الكشف أو الظهور فلأن الكثرة والزيادة أمر يظهر للناس وينكشف لهم ، فهو لازم من لوازم الكثرة والزيادة غالباً والله أعلم.

والشَّكُور: من صفات الله جل اسمه: معناه أَنه يزكو عنده القليل من أَعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء وشُكْرُه لعباده مغفرته لهم، وقيل: الشَّكُورُ في أسمائه هو مُعطي الثوابِ الجَزِيلِ بالعملِ القليلِ فالشَّكُورُ من أَبنية المبالغة ، **وأَما الشَّكُورُ** من عباد الله فهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأَدائه ما وَظَّفَ عليه من عبادته وقد قال الله تعالى: " اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْراً وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُور " [3].

---

١) المفردات في غريب القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ ص ٤٦ ، ت: صفوان عدنان الداودي ، نشر/ دار القلم، الدار الشامية - دمشق ـ بيروت ط / الأولى - ١٤١٢ هـ.

٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ (١/ ٣٩٧) تحقيق: أحمد البردوني ، نشر/ دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط / الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٣)) سورة سبا آية ١٣ ، وينظر في تعريف الشكر تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ (١٢ / ٢٢٤) ، نشر / دار=

الشكر في الاصطلاح:

إن عبـارات أهـل العلـم فـي تعريـف الـشكر كثيـرة دارت معظمهـا بـين الثنـاء والاعتراف والمشاهدة ومن هذه التعريفات:

هو: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناءُ على المُحسن بذِكرِ إحسانه، فالعبد يشكر الله أي يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة والله يشكر العبد أي يثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته.

وقال بعضهم: هو عُكُوفُ القَلْبِ على محبةِ المنعمِ والجوارحِ على طاعتهِ وجَريانَ اللسانِ بذِكْره والثناء عليه، وهذا تعريف للشكر بضروبه الثلاثة القلب واللسان والجوارح.

وقيل: هو مُشاهدةُ المِنةِ وحفظُ الحُرمةِ، **وقال الجنيد:** الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة. **وقيل:** هو إضافةُ النعمِ إلى مَولاها. وقيل: الشُّكْرُ قيدُ النِّعَمِ المَوجودةِ، وصيدُ النعمِ المَفقودةِ (١).

وفى التعريفات: الشكر هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله(٢).

ومن أفضل ما قيل فى تعريف الشكر لله: أنه الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة، العامة والخاصة، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته، ولا بد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته، فبهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تاما(٣).

= الهداية ، مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي المتوفى سنة: ٦٦٦هـ ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد ص ١٦١ ، نشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا ،الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

١) ينظر هذه التعريفات فى إحياء علوم الدين لأبى حامد محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ(٤ / ٨٤) نشر: دار المعرفة – بيروت ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ (٢ / ٢٣٤) ، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي ، نشر: دار الكتاب العربي – ط / الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م ،

٢) التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ ص ١٢٨ ، نشر/ دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ط / الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٣) ينظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لأبى عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ (٢ / ٣٦٠)، نشر/ وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ط / الأولى، ١٤٢٢هـ.

مفهوم النعمة:

النِّعْمَةُ لغةً: يقول ابن فارس:" النون والعين والميم " فروعه كثيرة، وهى على كثرتها راجعة إلى أصل واحد يدل على ترفه وطيب عيش وصلاح ، منه النعمة: ما ينعم الله تعالى على عبده به من مال وعيش. يقال: لله تعالى عليه نعمة. والنعمة: المنة ، والنعمة: التنعم وطيب العيش([1]).

وفي القاموس: النعمة بالكسر المسرّة. واليد البيضاء الصالحة كالنعمى بالضم الخفضُ والدِّعة والمال([2]).

النعمة اصطلاحاً:

عرفها الراغب بأنها " الحالة الحسنة "، وهى للجِنْسِ تقال للقليلِ والكثيرِ([3]). وهذا التعريف لا يترك معنى من معاني النعمة إلا ويشير إليه، فهو في الإنسان يشير إلى حالتيه البدنية والنفسية، وإلى أحوال معاشه، وإلى وضعه الاجتماعي وظروف حياته.

وعرفها الجرجانى: بأنها ما يقصد به الإحسان والنفع لا لغرض ولا لعوض([4]). وهذا تعريف جيد للنعمة وهو إن قصر كثيراً عن مرتبة تعريف الراغب في الجودة والدقة والإبداع، لكنه يهب على العقل بنسائم طيبة من المعاني **فمن معانيه الطيبة:**أن البلاء أو الضر هو من النعمة أيضاً، لأنه لم يقصد به من نحو الخالق سبحانه إلا الخير والإحسان والنفع ، ومن معانيه أيضاً: أن الله لا يمن بالنعم على مخلوقاته عبثاً، فليس في أفعاله عبث، ولا تصدر عنه لحاجة له، فهو سبحانه الغني بذاته عن مخلوقاته وعن كل حاجة أخرى، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ "([5]).

أما حقيقة شكر النعمة: فهو أن تقابل نعم الله بالإيمان به وبرسله ومحبته عز وجل، والاعتراف بإنعامه وشكره على ذلك بالقول الصالح والثناء الحسن والمحبة للمنعم وخوفه ورجائه والشوق إليه والدعوة إلى سبيله والقيام بحقه عز وجل.

---

١) معجم مقاييس اللغة (٥ / ٤٤٦).
٢) القاموس المحيط ص ١١٦٢.
٣) المفردات ص ٨١٤.
٤) التعريفات ص ٢٤٢.
٥) سورة فاطر آية ١٥.

ولا ريب فى أن أجل من يستحق الشكر هو الله جل جلاله ؛ لما له من عظيم النعَم والمنن على عباده في الدِّين والدنيا، وقد أمرنا الله تعالى بشكره على تلك النعم، وعدم جحودها، فقال: " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ "(١). **وأعظم من قام بهذا الأمر، فشكر ربَّه، حتى استحق وصف " الشاكر " و "** الشكور " هم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام ، قال تعالى: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (٢) ، وقال تعالى: " ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً " (٣) وقال تعالى: " فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ "(٤) ، وقال تعالى: " بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ "(٥).

أهمية شكر النعمة:

لشكر النعمة أهمية عظمى ، ومكانة سميا ، ومنزلة عليا ، وفائدة كبرى ، وأهل الشكر هم خواص الله من خلقه وأصفياؤه منهم ، فهم بين الناس قلة ومع ذلك فهم أرفعهم قدراً وأعلاهم منزلة ، **وتتجلى أهمية شكر النعمة فى:**

١ . أنه أحد الأسس التي بني عليها الدين ، يقول ابن القيم (٦)– رحمه الله: مبنى الدين على قاعدتين الذكر والشكر ثم يدلل على ذلك بقوله تعالى: " **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُون**"(٧). وبقوله- صلى الله عليه وسلم– لمعاذ– رضي الله عنه " **والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني علي ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**"(٨).

---

١) سورة البقرة آية ١٥٢.
٢) سورة النحل آية ١٢٠ ،، ١٢١.
٣) سورة الإسراء آية ٣.
٤) سورة الأعراف آية ١٤٤..
٥) سورة الزمر آية ٦٦.
٦) الفوائد لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ ص ١٢٨نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت ط / الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
٧) سورة البقرة آية ١٥٢.
(٨أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٦ / ٤٤٤) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد، وآخرون
نشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (١ / ٣٦٩) تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي ، نشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

٢ . **ومما يدل على أهمية شكر النعمة** أنه من أهم الأسباب لحصول رضا الرب تبارك وتعالى فالشكر يرضاه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن النفع حاصل لهم : قال تعالى:" **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّـهَ غَنِـيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم**(١)، فقوله تعالى:**'وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم " أي يرض الشكر لأجلكم ومنفعتكم ؛ لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به، وإنما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم.**

٣ . **تتجلى أيضاً أهمية شكر النعمة** فى اقترانه بالإيمان ، وذكره معه ، وجعلهما معاً سبباً للأمن من العذاب ، يقول تعالى: " **مَا يَفْعَلُ اللَّـهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّـهُ شَاكِراً عَلِيما**" (٢). **فالشكر آمان من عذاب الله، فالشاكر يحصل له الآمان من عذاب الله تعالى بخلاف المنافق المعرض لعذاب الله-عز وجل-.**

٤ . **جعل الله تعالى كفر النعمة وعدم شكرها** سببا فى وجود الجوع والخوف فى المجتمع يقول تعالى: **وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** "(٣).

٥ . **كما جعله الله سببا للمزيد من فضله** ، وحارساً وحافظاً لنعمته من الزوال، يقول تعالى: " **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**"(٤). إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التى تحدث عنها القرآن الكريم والتى تدل على أهمية شكر الله على نعمه وعظيم فضله وجليل نفعه..

أنواع النعمة فى القرآن الكريم

إن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على خلقه وتفضل عليهم بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، كما فضّل بني آدم على سائر المخلوقات وحباهم بكافة النِّعم ، والنعمة لا بد لها من منعم، وهذه النعم الكثيرة على الإنسان إنما هي من صنع الله الواحد

١) سورة الزمر آية ٧.
٢) سورة النساء آية ١٤٧.
٣) سورة النحل آية ١١٢.
٤) سورة إبراهيم آية ٧.

لا شريك لـه ، وقد نبـه . سبحانه وتعالى . في كتابه الكريم إلى كثير من النعم فأكثر الحديث عنها، ووجه الأنظار إليها وقرر عباده بها ليدفعهم إلى التفكير في مصدرها وموجدها وأنه جدير بالعبادة، ولما يثير شكر هذه النعم في أنفسهم من محبـــة لبارئهـــا ولا ســـيما أن هـــذه الـــنعم ليـــست فـــي طاقـــة البـــشر. فالتذكير بنعم الله يوقظ القلب الغافل وينبهه إلى ما يرتع فيه الإنسان من خيرات عظيمة ونعم جليلة، فيكون ذلك أدعى للاستجابة لهدي الله والدخول في طاعته ، والنعمـة تـذكر فـي القرآن الكريم كثيرًا، أحيانًـا مفصلة وأحيانًـا بآيـات عامـة لمـا يترتب علـى ذكرها من إظهـار فضل الله وكرمـه ورحمتـه وعطائـه ليشكر العاقل إلهـه الحـق المـنعم عليـه، ولتقـوم الحجـة علـى الإنـسان الظـالم الجاحـد فيـستحق العقاب ، وقد بين الله تعالى عجزنا عن إحصاء نعمه بآيتين هما قوله تعالى: " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "(١) ، وقوله تعالى: " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ "(٢) ، لذلك دعا الله تعالي عباده في كثير من المواطن في القرآن الكريم إلى أداء شكر هذه النعم التي وهبها للإنسان والتي تدل علي معجزات الله في خلقه وعظيم رحمته بالإنسان والتدبر والتأمل في خلق الكون وخلق نفسه فهى من العبادات التي يحبها الله عز وجل ، **ونظراً لأن نعم الله تعالى خارجة عن حد التعداد ، بل إننا لو استقصينا النعمة الواحدة لوجدنا فيها نعما كثيرة. ومن ثم لم تكن هذه الدراسة إحصائية لكل آيات شكر الله تعالى على نعمه الدينية والدنيوية ، لذا فقد جمعتُ بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بهذا الموضوع ثم قسمتها حسب النعمة التي تتحدث عنها الآية إلى نعمة دينية ونعمة دنيوية.**

١) سورة النحل آية ١٨.
٢) سورة إبراهيم آية ٣٤.

المبحـث الأول
النعـمة الدينية

لا شك أن النعمة الدينية هى النعمة على الحقيقة ، وقد امتن الله عز وجل على عباده بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وأعظم هذه النعم وأجلها نعمة الإسلام الذي بعث الله به رسله على مر القرون، وختمهم ببعثة سيد المرسلين إلى الناس كافة ، فطريق الإسلام والتّوحيد الذي جاء به سيّدنا محمّد صلّى الله عليه و سلّم بالوحي من ربّ العالمين، هو طريق السّعادة للبشريّة والفلاح، ومن سلكه فاز وأفلح و ورث جنّة ربّه التي فيها النّعيم المقيم، و من تنكّب هذا الطريق خاب وخسر لذلك

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَشْرَفِ مِنَّةٍ عَلَيْهِمْ: أَنْ أَرْسَلَ إلَيْهِمْ رُسُلَهُ ؛ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ؛ وَبَيَّنَ لَهُمْ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ بَلْ أَشَرَّ حَالًا مِنْهَا فَمَنْ قَبِلَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَاسْتَقَامَ عَلَيْهَا فَهُوَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَمَنْ رَدَّهَا وَخَرَجَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْ الْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ "(١) ثم شرع عز وجلَّ العبادات والفرائض بأنواعها، والشرائع بأحكامها نعمة منه تعالى على عباده، لتقرّبهم إليه، ويُجزون عليها في الآخرة أعلى الدرجات، وينعمون بسببها في الدنيا بصلاح قلوبهم وأحوالهم ومعايشهم ؛ إذ لولا رحمة الله تعالى على عبادَه بإنزال الشرائع وهدايتهم لها واتباعهم إياها لضاعوا وضلوا وأثموا وخسروا الدنيا والآخرة.

ونحن إذا تأملنا معظم آيات القرآن الكريم نجد أنه تعالى قد ختم آيات الشرائع والأحكام بذكره عز وجل ووجوب شكره عليها ؛ ففى آية تشريع الطهارة والتيمم يقول:" مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "(٢) ، وفي آيات الصيام يقول:" وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "(٣) ، وفى آية كفارة اليمين يقول:" ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ

---

١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (١٩ / ١٠٠) ط / الأوقاف السعودية ، نشر / مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ط / ١٤٢٥ – ٢٠٠٤.
٢) سورة المائدة آية ٦.
٣) سورة البقرة آية ١٨٥.

إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "(١) وغيرها كثير، فحريٌّ بالمسلم أن يطلب هذه النعم أشد الطلب، وأن يحمد الله على ما وفقه له منها، وأن يعلم أنّ مبنى التفضيل والتفاضل عليها، وأن يلحظ نعم الله تعالى فيه ، وفيما شرع من تكاليف وفرائض ، فإنه إذا استشعر ذلك أتي مواطن الحمد والشكر، وجانب مواضع الجحود والكفر ، وإليك بعض هذه النعم:

المطلب الأول

نعمة الهداية للإسلام

إن أعظم نعم الله على عباده هي نعمته عليهم بالهداية إلى دينه الذي اختاره لعباده، وأمرهم بسلوكه ، فهى النعمة الوحيدة التي ذكر الله إتمام الدين بها علينا ؛ لأنها هى التي تثمر السعادة والطمأنينة في الدنيا ويمتد أثرها إلى الآخرة، فهو النعمة العظمى والعطية الأجلّ ، وهو من أعظم النعم الواجب شكرها. كمما ذكرها المولى – عز وجل – فى معرض الامتنان والتفضل والإكرام ، وإنما عظم شأن هذه النعمة وكبر قدرها ؛ لأنَّ الإسلام هو دين الله تبارك وتعالى الذي رضيه عز وجل لعباده دينا ولا يقبل منهم ديناً سواه، يقول تبارك وتعالى:" إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ"(٢) ، ولهذا نسب الله هذه النعمة إليه سبحانه تشريفاً لها عن غيرها من النعم، فهداية الله– تعالى– لعباده إلى الإسلام تعتبر منَّة لا تدانيها منة، ونعمة لا تقاربها نعمة، وعطاء ساميا جليلا منه– تعالى– لا يساميه عطاء فله– عز وجل– الشكر الذي لا تحصيه عبارة على هذه النعمة، ونسأله– تعالى– أن يديمها علينا حتى نلقاه. **ومن الآيات التى ذكرت تلك النعمة واستوجبت شكره تعالى عليها:**

١ ـ قوله تعالى:

" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا

١) سورة المائدة آية ٨٩.
٢) سورة آل عمران آية ١٩.

تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" سورة المائدة آية ٣

مناسبة الآية لما قبلها:

لما قال تبارك وتعالى في أول السورة: " أحلت لكم بهيمة الأنعام " (١) ذكر فيه استثناء أشياء تتلى عليكم، ذكر الله تعالى فى تلك الآية تلك الصور المستثناة من ذلك العموم فقال: " حرمت عليكم الميتة والدم....." الآية.

معانى المفردات والتراكيب:

شرع الله تبارك وتعالى فى هذه الآية في بيان المحرمات التي أشير إليها في أول السورة بقوله: " إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ " وهي إحدى عشرة نوعاً: **الأول: ما ذكره** بقوله: " **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ** " ، **والميتة من الحيوان:** ما زالت روحه بغير تذكيةٍ(٢). **وتحريم الميتة موافقٌ لما في العقول** ؛ لأن الدم جوهر لطيف جدًّا، فإذا مات الحيوان حتف أنفه.. احتبس الدم في عروقه، وتعفن وفسد، وحصل من أكله مضار عظيمة(٣) ، **والعلة فى تحريم الميتة:**هى استقذار الطباع السليمة لها ، ولأنّ في أكلها مهانة تنافي عزة النفس وكرامتها ، فوق الضرر الذي ينشأ من أكلها، سواء كانت قد ماتت بمرض، أو شدة ضعف، أو بغير ذلك ، ولأن فى تحريمها تعويد المسلم أن لا يأكل إلا مما كان له قصد في إزهاق روحه(٤).

الثانى من الأطعمة المحرمة: " **الدم** " **أي:** وحرم عليكم أكل الدم، والمراد به: الدم المسفوح ؛ **ولعل حكمة تحريم الدم:** الضرر والاستقذار أيضًا، أما الضرر؛ فلأنه عسر الهضم جد العسر، ويحمل كثيرًا من المواد العفنة التي تنحل من

---

١) سورة المائدة آية ١.

٢) ينظر عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ لأبى العباس شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ (٤ / ١٢٤) ط /دار الكتب العلمية ، ط/ أولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٣) ينظر التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى المسمى مفاتيح الغيب (١١ / ٢٨٣) ط / دار إحياء التراث العربى - بيروت ، ط / الثالثة ١٤٢٠ هـ.

٤) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان فى روابى علوم القرآن للشيخ محمد الأمين العلوى (٧ / ١٠١) ط / دار طوق النجاة - بيروت - لبنان ، ط / أولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

الجسم(١) ، **الثالث:** " **لحم الخنزير**": **وعلة تحريمه:** أن لحمه يشتمل على جراثيم مضرة لا تقتلها حرارة النار عند الطبخ، فإذا وصلت إلى دم آكله عاشت في الدم فأحدثت أضرارا عظيمة، منها مرض الديدان التي في المعدة (٢).

الرابع: " **وما أهل لغير الله به** ": أى حرم عليكم أكل ما ذبح لغير الله، وأصل الإهلال رفع الصوت، ومنه استهلال الصبي إذا صاح عند الولادة، وإنما سمي الذبح إهلالا ؛ لأنهم كانوا يرفعون الصوت عند الذبح بذكر آلهتهم، فحرم الله تعالى ذلك عليهم(٣) ، فقد أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك، من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع(٤).

الخامس:" **المنخنقة** " وهى التي خُنقت حتى ماتت أو عرض لها ما يخنقها.

السادس: "**والموقوذة** ": الوقذ: الإيلام بالضرب ، وشاة موقوذة: إذا ضربت بعصا أو بحجر تموت به دون إهراق دم(٥).

السابع: " **المتردية** " وهي التي سقطت من جبل أو سقطت في بئر ترديا تموت على إثره ، الثامن: النَّطِيحَةُ: هى ما نُطِحَ من الأَغْنام فماتَ(٦).

وحكمة تحريم هذه الأربعة: أن الموت بانحباس النفس يفسد الدم باحتباس الحوامض الفحمية الكائنة فيه فتصير أجزاء اللحم المشتمل على الدم مضرة لآكله(٧). **التاسع:** " **وما أكل السبع**" أي: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك ، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما

---

١) ذكره الفخر الرازى فى تفسيره (١١ / ٢٨٣).
٢) ينظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ (٦ / ٩٠) ط / الدار التونسية للنشر ـ تونس ط / ١٩٨٤ م.
٣) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (٢ / ١٥٢) ، ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٢ هـ.
٤)) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ((٣ /١٧) ط / دار طيبة للنشر والتوزيع ط / الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩ م ، تحقيق: سامى بن محمد سلامة.
٥) ينظر معجم مقاييس اللغة (٦ / ١٣٢).
٦) ينظر المفردات ص ٨١١.
٧) ينظر التحرير والتنوير (٦ / ٩١).

أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين(١).

وأصل الذكاة: تمام الشيء(٢) ، ومعنى قوله: " **إلا ما ذكيتم** " يعني ما أدركتم ذبحه على التمام. وهو عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله:" والمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع " ، فالمقصود بالاستثناء: هذه المذكورات الخمسة، فإن هذه المذكورات تعلقت بها أحوال تفضي بها إلى الهلاك فإذا هلكت بتلك الأحوال لم يبح أكلها ؛ لأنها حينئذ ميتة، وإذا تداركوها بالذكاة قبل الفوات أبيح أكلها(٣).

العاشر: " **وما ذبح على النصب** " والنصب: واحد الأنصاب، وهى الحجارة التي كانوا يعبدونها ، فقد كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها يعظمونها بذلك ويتقربون إليها(٤).

الحادى عشر: " **وأن تستقسموا بالأزلام** " والأزلام: القداح واحدها زلم، وإنما سميت القداح بالأزلام ؛ لأنها زلمت ، أي سويت(٥) ، والاسقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام ، فكان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو غير ذلك يعمد إلى قداح ثلاثة على واحد منها مكتوب أمرني ربي وعلى الآخر نهاني والثالث غُفْلٌ ، فإن خرج الآمر مضى لحاجته وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاده(٦). **فالاستقسام** الذي كان يفعله أهل الجاهلية حرام بلا شبهة كما هو نص الكتاب، وأن حرمته ناشئة من سوء الاعتقاد، وأنه لا يخلو عن تشاؤم، وليس بتفاؤل محض ، وإن مثل ذلك ليس من

---

١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ٢٢).
٢) ينظر معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق إبراهيم الزجاج المتوفى سنة٣١١ هـ (٢ / ١٤٦) ط / عالم الكتب ـ بيروت ، ط / أولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
(٣) ينظر التحرير والتنوير (٦ / ٩٢).
٤) ينظر مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ (١ / ١٥٢) ، ط / مكتبة الخانجى القاهرة ١٣٨١ هـ ، تحقيق: محمد فؤاد سزكين ، المحرر الوجيز (٢ / ١٥٢).
٥) ينظر معانى القرآن لأبى الحسن المجاشعى المعروف بالأخفش المتوفى سنة ٢١٥ هـ (١ / ٢٧٣) ط / مكتبة الخانجى ـ القاهرة ط / أولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.
٦) ينظر بحر العلوم لأبى الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ (١ / ٣٦٨) بدون طبعة.

الدخول في علم الغيب أصلا بل هو من باب الدخول في الظن ، وقد أغنى الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم عنها بما سن من الاستخارة الثابتة في غير ما خبر صحيح(١).

ثم قال تعالى: " **ذلكم فسق**" **وفيه وجهان: الأول:** أن يكون راجعا إلى الاستقسام بالأزلام فقط ومقتصرا عليه ، **والثاني:** أن يكون راجعا إلى جميع ما تقدم ذكره من التحليل والتحريم، فمن خالف فيه رادا على الله تعالى فقد كفر(٢).
ثم أَخبر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأَن الكفار قد انقطع رجاؤهم من زوال دين الإسلام. أو النَّيل منه ومن أَتباعه. فقد بدّل الله المؤمنين من ضَعْفِهِمْ قوةً، ومن خوفهم أَمْنًا، ومن فقرهم غنًى. فوجب عليهم أَلَّا يخشَوْا إلا الله، وأَلَّا يرهبوا أَحدًا سواه. فقال " اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون " أى: يئسوا منه أن يبطلوه ، أو يئسوا من دينكم أن يغلبوه ؛ لأن الله تعالى وفى بوعده من إظهاره على الدين كله ، فَلاَ تَخْشَوْهُمْ بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار، وانقلابهم مغلوبين بعد ما كانوا غالبين واخشون أى أخلصوا لى الخشية (٣) ،**وفى سر وضع هذا الخبر فى هذا الموضع يقول صاحب المنار**: "إنني أتنسم من وضع هذا الخبر في هذا الموضع، وترتيب هذا الأمر والنهي عليه: أن حكمة الاكتفاء في أول الإسلام بذكر محرمات الطعام الأربعة الواردة في بعض السور المكية، وترك تفصيل ما يندرج فيها مما كرهه الإسلام للمسلمين من سائر ما ذكر في هذه الآية إلى ما بعد فتح مكة – هو التدريج في تحريم هذه الخبائث والتشديد فيها، كما كان التدريج في تحريم الخمر ؛ لئلا ينفر العرب من الإسلام، ويرون فيه حرجا عليهم جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوة الإسلام، وتوسعة الله على أهله وإعزازهم، وبعد أن يئس المشركون بذلك من نفور أهله منه،

١) ينظر روح المعانى لشهاب الدين محمود الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ (٢ / ٢٣٢) دار الكتب العلمية – بيوت ط / أولى، ١٤١٥ هـ.
٢) ينظر مفاتيح الغيب (١١ / ٢٨٦).
٣) ينظر تفسير النسفى المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبى البركات عبد الله النسفى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١ / ٤٢٦)، نشر / دار الكلم ـ بيروت ، ط / أولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.

وفـرارهم مـن تكاليفـه، وزال طمعهـم فـي الظهـور علـيهم وإزالــة ديـنهم بـالقوة القاهرة([1]).

ولما بين يأس الكفار من هذا الدين أخبر أنه أكمله ، وأتم علينا نعمة الإسلام وكفى بها نعمة فقال سبحانه: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا "

ووجـه كـون الإسـلام نعمـة أمـران: الوجـه الأول: الكلمـة المشهورة علـى لسان الأمة وهي قولهم: الحمد لله على نعمة الإسلام. **والوجـه الثـاني:** أنه تعالى قال في هذه الآية:" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي " ذكر لفظ النعمة مبهمة، والظاهر أن المراد بهذه النعمة ما تقدم ذكره وهو الدين(٢).

فما أعظم نعمة الله على الإنسان حين يخرجه من الظلمات إلى النور ويهديه للدين الذي ارتضاه له، ليحقق المقصد والوظيفة التي خلق من أجلها وهي عبادة الله، فينال سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة. وما أعظم منة الله وفضله علينا حين يصطفينا ، ويختارنا لنكون خير أمة أخرجت للناس لنحمل كلمة لا إله إلا الله، التي بعث الله بها كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقد اختار الله تعالى هذه الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس ، لتحمل رسالة التوحيد التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، **ولذلك قال ابن كثير رحمه الله: "** هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ: حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينِ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خُلْف، كَمَا قَالَ تَعَالَى: " وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا "(٣) أَيْ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ الدِّينَ لَهُمْ تَمَّتِ النِّعْمَةُ

---

١) تفسير المنار للسيد محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني المتوفى سنة ١٣٥٤هـ (٦ /١٢٧) ،
نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠ م
٢) مفاتيح الغيب (١١ /٢٨٩).
٣) سورة الأنعام آية ١١٥.

عَلَيْهِمْ"(١) ، فالإيمان بالله وتوفيق الله للعبد لهذا الإيمان نعمة من أجل نعم الله على عبده، يقول جل وعلا: " وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ"(٢)

فما أجلها من منّة ونعمة أن يوفق المرء للإسلام سلوكاً وعملاً به ودعوةً إليه وانتماءً إليه ، وهو بلا شك نعمة تستحقق الشكر لواهبها عز وجل قال تعالى:" وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ "(٣) وهذه النعمة وإن لم تعقب بالشكر كسائر معظم الآيات التى ذيلت به والتى تضمنت نعماً عظيمة ، إلا أنها تلوّح وتنبه إلى هذا المعنى ، فإكمال الدين الإسلامى وتمامه ، وجعله الدين المرضى دون غيره مما يجعل العاقل الحكيم يسْبَح فى بحار هذه النعمة ، ويحلِّق فى سمائها ، ويدرك أنه لولا إرادة الله عز وجل وتوفيقه ما ظفر بها ، فيدفعه ذلك إلى شكره عز وجل عليها ،

ومن تمام شكره تعالى على هذه النعمة هو الحفاظ عليها والتمسك بها ، فمَن أكرمه الله –عز وجل– وحباه بهذا الدين، وجعله من أهل الإسلام، عليه أن يقدر هذه النعمة قدرها، ويرعى لها مكانتها، حفظا ومحافظة ورعاية لهذا الإسلام، وعناية به من كل ما ينقصه أو يناقضه من الأعمال الباطلة، والمخالفات السيئة، وفعل الحرام والآثام ، ومن أعظم واجبات أهل هذا الدين أن يعرفوا الإسلام، ويعرفوا تفاصيله وشرائعه وحقيقته ؛ لأن أعظم عون للإنسان في محافظته على إسلامه أن يعرف الإسلام وحقيقته، وأن يعرف شرائعه وتفاصيله على ضوء ما جاء في كتاب الله، وسنة نبيه –صلى الله عليه وسلم.

ثم عاد إلى ذكر ما يتعلق بالمحرمات فقال تعالى: فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " ، فقوله:" **فَمَنِ اضطر**" متصل بذكر المحرمات ، وقوله: " ذلكم فسق" اعتراض أكد به معنى التحريم وكذا ما بعده ؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل(٤).

---

١) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ٢٦).
٢) سورة الحجرات آية ٧.
٣) سورة فصلت آية ٣٣.
٤) ينظر تفسير النسفى (١ / ٤٢٧).

والمَخْمَصَةِ: المجاعة، والخمص: الجوع ، و " **الجنف** ": الميل ، وهذا الكلامُ يرجع إلى المحرمات المتقدّمة من الميتة والدم، وما ذكر معهما ، والمعنى: فَمَنِ دعته الضرورة إلى أكل ما حرُم عليه ، غير مائل أو متعمد لإثم(١).

" **فإن الله غفور رحيم** ": غفر الله له ما أكل مما حرم عليه حين اضطر إليه، ورحيم بأوليائه حيث أحل لهم ما حرم عليهم في المخمصة إذا اضطروا إلى أكلها(٢).

٢ . قوله تعالى:

" **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** " **سورة الحجرات آية ١٧.**

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أمر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة بإجلال رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإعظامه، ونهى عن أذاه في نفسه أو في أمته، ونهى عن التفاخر الذي هو سبب التقاطع والتداحر، وذكر ما تفاخر به الأعراب من أهل البادية من بني أسد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء على النبى –صلى الله عليه وسلم– بدخوله الإسلام من غير قتال ، ولما كان قولهم هذا صورته صورة المنة، قال تعالى مبكتاً لهم عليه معبراً بالمضارع تصويراً لحاله في شناعته: "يمنون عليك.."(٣)

معانى المفردات والتراكيب:

أشار المولى – تبارك وتعالى– إلى نوع من جفاء بعض هؤلاء الأعراب وقلة إدراكهم فقال: " **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا..**" و**المن:** ذكر الأيادي تعريضاً للشكر(٤) ، و**قال الراغب:** المِنَّةُ: النّعمة الثّقيلة، ويقال ذلك على وجهين:

---

١) ينظر زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج عبد الرحمن الجوزى المتوفى سنة٥٩٧ هـ (١ / ٥١٤) ط / دار الكتاب العربى ـ بيروت ط / أولى ١٤٢٢ هـ.

٢) ينظر التفسير الوسيط لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ (٢ / ١٥٥) ط / دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط /أولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

٣) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي المتوفى: ٨٨٥هـ) (١٨ / ٣٩١) بتصرف ، نشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

٤) ينظر تفسير النسفى (٣ / ٣٥٩).

أحـدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال: منَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قوله: " **يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ**" (١) وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى. **والثـاني:** أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلّا عند كفران النّعمة، ولقبح ذلك قيل: المِنَّةُ تهدم الصّنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النّعمة حسنت المنّة. وقوله: " يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أن أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَـيَّ إِسْـلامَكُمْ "، فالمنّـة مـنهم بـالقول، ومنّـة الله علـيهم بالفعـل، وهـو هدايتـه إيّاهم"(٢).

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بما يقولـه لهم عند المنّ عليـه بما يدَّعونـه من الإسلام، فقال:" لَا تَمُنُّوا عَلَـيَّ إِسْلَامَكُمْ " أي: لا تعدوا إسلامكم منّة عليّ، أو لا تمنّوا على بإسلامكم، فإنّ الإسلام هو المنّة التي لا يطلب موليها ثوابًا ممن أنعم بها ، وإن نفعها يعود عليكم(٣).

وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة، وذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا، فلما منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام، فقل لهم: لا تعتدوا على إسلامكم، أى حدثكم المسمى إسلاما عندي لا إيمانا. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان " (٤).

ثم ينـوه الله تعالى بهذه النعمـة ، ويبين عظم مكانتها ، وأنها منتـه سبحانه على من يشاء من عباده فيقول:"بل الله يَمُنُّ عَلَيْكُم ْ" ، وفى معناها وجهان

أحـدهما: أن يكون بمعنى: ينعم كما تقول: من الله عليك، **الثـانى:** أن يكون بمعنى يذكر إحسانه ، فيجيء معادلا ومقابلاً لـ" يَمُنُّونَ عَلَيْكَ"، وقال الناس قديما: إذا كفرت النعمة حسنت المنة. وإنما المنة المبطلة للصدقة المكروهة ما

---

١) سورة إبراهيم آية ١١.
٢) المفردات ص ٧٧٨.
٣) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٢٧ / ٣٨٩).
٤) ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبى القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله المتوفى سنة ٥٣٨هـ (٤ / ٣٧٨) ، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

وقع دون كفر النعمة ([1]).**وجواب الشرط في قوله:** " **إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** "محذوف، يدل عليه ما قبله. أى: إن كنتم صادقين في إيمانكم فاعتقدوا، أن المنة إنما هي لله- تعالى- عليكم، حيث أرشدكم إلى الطريق الموصل إلى الإيمان الحق([2]).

فذكر - عز وجل- أنه أسدى إليكم نعمه ظاهرة وباطنة منها ما هو "أن هداكم للإيمان" أي بين لكم الطريق المستقيم ، أو وفقكم للاهتداء وهو تصديق الباطن مع الانقياد بالظاهر، والتعبير عن هذا بالمن أحق مواضعه، فإنه سبحانه غير محتاج إلى عمل فإنه لا نفع يلحقه ولا ضر، وإنما طلب الأعمال لنفع العاملين أنفسهم([3])، كما منَّ عليهم بأن أرسل رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فبين لهم فكذبوه بأجمعهم، فلم يزل يقويه حتى أظهر فيه آية مجده ، وأظهر دينه على الدين كله، وجعله الدين المرضى والمختار دون غيره ، ودخل فيه الناس طوعاً وكرهاً على وجوه من المجد ، فكما أنه تعالى يمنُّ علي عباده بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم من كل شيء، فهي المنة الكبرى التي لا يملكها ولا يهبها إلا الله الكريم، لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم ، **وهذه الآية وما تضمنته من نعمة وإن لم تعقب بالشكر كسابقتها ، لكنها ذكرت فى سياق الامتنان والتفضل والإحسان من الله تعالى على عباده ، مما تجعل العاقل الحكيم يجول فى ساحة هذه النعمة ، ويغوص فى أعماقها ليقتطف من ثمارها ، ويدرك أنه لولا** إرادة الله عز وجل وتوفيقه ما ظفر بها ، فيدفعه ذلك إلى شكره عز وجل عليها ، **ومن تمام شكره على هذه النعمة:** أن يحمده – عز وجل- دائماً على تلك النعمة الكبرى والمنة العظمى ، إذ جعله من أهل التوحيد الخالص والدين الحق ؛ وعليه أن يسعى جاهداً لمحاولة الفهم العميق لمبادئ الإسلام ولتشريعاته الخالدة ، وكذا التطبيق العملي لتلك التعاليم والتشريعات حتى تصبح واقعاً

---

١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية (٥ / ١٥٤) ، التسهيل لعلوم التنزيل لأبى القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤١هـ (٢ / ٢٩٩) ، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي ، نشر / شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ

٢) ينظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى (١٣ / ٣٢٤) ط / دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط / أولى - بدون تاريخ.

٣) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٨ / ٣٩٣).

ملموساً وسلوكا مشاهداً ، وحتى يدرك الناس أن هذه النعمة ليست شعاراً يرفع ، ولا كلمات تقال بل هي أثر يُدرك وأمل ينُشد.

المطلب الثانى

نعمة بعثة الرسول صلى اللّه عليه وسلم

إن من أعظم النعم التى أنعم الله بها على أهل الأرض أيضاً نعمة بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أرسل إلى الناس نبياً كريماً، ورسولاً عظيماً، وإماماً مقدماً ، بعثه الله على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل، وخفاء من معالم الهدى، هدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وأوجب على أهل الأرض طاعته، فكان صلى الله عليه وسلم دعوة أبيه ابراهيم حين قال: " ربنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (١) وكان بشرى أخيه عيسى عليه السلام حين قال: " وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ "(٢). فكان إجابة لدعوة الخليل إبراهيم ومصداقا لبشارة أخيه عيسى عليه السلام ، فقد جعله الله نورا وسراجا منيرا أنار الله به الأرض بعد ظلمتها وهدى به البشرية بعد حيرتها، هدى به الأمة من الضلالة إلى الصراط المستقيم، وبصَّر به من العمى، وجمع به بعد الفرقة، وأغنى به بعد العيلة والفقر، وأحيا به ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فدعا إلى الهدى، وبشَّر وأنذر.فكان النعمة العظمى والمنحة الكبرى التي تفضل الله بها على أهل الأرض. **يقول ابن رجب الحنبلى:**" إن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء ، والأرض، والشمس، والقمر، والرياح، والليل، والنهار، وإنزال المطر، وإخراج النبات، وغير ذلك ؛ فإن هذه النعمة كلها قد عمت خلقا من بني آدم كفروا بالله وبرسله وبلقاءه، فبدلوا نعمة الله

١) سورة البقرة آية ١٢٩.
٢) سورة الصف آية ٦.

كفرا. وأما النعمة بإرسال محمد – صلى الله عليه وسلم –، فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم " (١)، **فنعمة جليلة وعظيمة كهذه جديرةٌ بوجوب شكره عز وجل عليها ، ومن الآيات التى تشيد بهذه النعمة قوله تعالى:**
" **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** " **سورة آل عمران آية (١٦٤).**

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بين الله تعالى خطأ من نسبه . صلى الله عليه وسلم . إلى الخيانة والغلول قال: لا أقنع بذلك ولا أكتفي في حقه بأن أبين براءته عن الخيانة والغلول، ولكني أقول: إن وجوده فيكم من أعظم نعمتي عليكم فإنه يزكيكم عن الطريق الباطلة، ويعلمكم العلوم النافعة لكم في دنياكم وفي دينكم، فأي عاقل يخطر بباله أن ينسب مثل هذا الإنسان إلى الخيانة(٢)

معانى المفردات والتراكيب:

يمتن المولى عز وجل فى هذه الآية على عباده ببيان أن من أعظم نعمه على هذه الأمة إظهار محمد – صلى الله عليه وسلم – لهم وبعثته وإرساله إليهم فقال تعالى: " **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنين** " أي: وعزتي وجلالي، لقد منَّ الله سبحانه وتعالى وأنعم عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وأحسن إليهم، وتفضَّل عليهم بنعمة عظيمة التي هي بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – إليهم ، **وإنما جعل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم منة:** لكونها وردت بعد محنةٍ، فكان موقعها أعظم إذ إن بعثة الرسول جاءت بعد جهلٍ، وبُعدٍ عن الحق، فكانت أعم نفعًا وأتم وقعًا(٣).

---

١) روائع التفسير لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ (١/ ٢٢٢) نشر/ دار العاصمة - المملكة العربية السعودية ط / أولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١.
٢) ما ذكر من مناسبة بين هذه الآية وما قبلها هو أحد وجه أربعة ذكرها الإمام الرازى لكنى آثرت هذا الوجه لمناسبته لسياق الآية. ينظر مفاتيح الغيب (٩ / ٤١٧)
٣) ينظر تفسر حدائق الروح والريحان (٥ / ٢٤١).

وقد خاطب المؤمنين بذلك خاصة: لأن المؤمنين هم الذين صدقوه فكأنه منهم فهم المنتفعون بمبعثه – صلى الله عليه وسلم (١).

ثم بدأ يعدد جوانب هذه المنة وجسيم تلك النعمة فوصفه الله سبحانه وتعالى بأوصافٍ جليلة ومن هذه الأوصاف: الأول: أنه "من أنفسهم" أي: إنه عربي من جنسهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم فلا يفقهوا عنه ما يقول ، وبذا يكونون أسرع الناس إلى فهم دعوته، والاهتداء بهديه، وأقرب إلى الثقة به من غيرهم(٢). **ووجه المنة فى قوله: "من أنفسهم"**: أنه صار شرفًا للعرب، وفخرًا لهم، وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركًا فيه اليهود، والنصارى، والعرب، ثم إن اليهود يفتخرون بموسى، والتوراة، والنصارى يفتخرون بعيسى، والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلما بعث الله محمدًا – صلى الله عليه وسلم –؛ وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائدًا على شرف الجميع(٣) ، وأنه إذا كان اللسان واحدا سهل عليهم أخذ ما يجب أخذه عنه، وإذا كانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة كان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به(٤).

الوصف الثانى: أنه" **يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ** " والمراد بالآيات: الآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته، وتلاوتها: عبارة عن تلاوة ما فيه بيانها وتوجيه النفوس إلى الاستفادة منها والاعتبار بها، وهو القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية، لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي كقوله – عز وجل – في أواخر هذه السورة: إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب(٥).

---

١)ينظر بحر العلوم للسمرقدى (١ / ٢٦٢).
٢) ينظر جامع البيان (٧/ ٣٦٩).
٣) ينظر مفاتيح الغيب (٩/ ٤١٩) ، وبنحو هذا المعنى ذكره الزمخشرى فى الكشاف (١ / ٤٣٥).
٤) ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن النيسابورى المتوفى سنة ٨٥٠ (٢ / ٣٠٣) ت: الشيخ زكريا عميرات ، نشر / دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / أولى ١٤١٦ هـ.
٥) سورة آل عمران آية ١٩٠ ، ينظر محاسن التأويل لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ (٢ / ٤٥٢) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود نشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة/ الأولى ـ ١٤١٨ هـ ، تفسير المنار (٤ / ١٨٢).

الوصف الثالث: أنـه" يزكيهم" أي يطهرهم من أوضار الدنيا والأوزار بما يفهمه بفهمه الثاقب من دقائق الإشارات وبواطن العبارات، وإنما قدم التزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة ذلك (١). **فالمراد بالتزكية:** هنا تزكية نفوسهم وتطهيرها بالتخلي عن الأخلاق الذميمة والتحلي بالاخلاق الفاضلة ، فكان صلى الله عليه وسلم معلماً ومربياً.

الوصف الرابع: أنـه " يعلمهم الكتاب والحكمة " فهذا الدين الذي جاء به قد اضطرهم إلى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الأمية ؛ لأنه دين حث على المدنية وسياسة الأمم. فكان أول حاجتهم إلى تعلم الكتابة وجوب كتابة القرآن، وقد اتخذ – صلى الله عليه وسلم – كتبة للوحي وكتبوا له كتبا دعا بها الملوك والرؤساء إلى الإسلام، وكان يأمرهم بتعلم الكتابة. ثم كان ذلك يكثر فيهم على قدر نماء مدنيتهم وامتداد سلطتهم ، **وأما الحكمة:** فهي أسرار الأمور وفقه الأحكام وبيان المصلحة فيها والطريق إلى العمل بها، ذلك الفقه الذي يبعث على العمل، أو هي العمل الذي يوصل إلى هذا الفقه في الأحكام أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها ؛ لأن هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الآداب والعبادات(٢).

ثم بين تعالى ما تكتمل به هذه النعمة وهو أنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين

والمعنى: وما كانوا من قبل مجيء محمَّد، ونزول القرآن، إلّا في ضلال بيّن، وذلك لأنَّ دين العرب قبل ذلك كان أرذل الأديان، وهو عبادة الأوثان، وأخلاقهم أرذل الأخلاق، وهو الغارة والنهب، والقتل، وأكل الأطعمة الرديئة، ثم لما بعث الله تعالى سيدنا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – إليهم انتقلوا ببركته من تلك الدرجة التي هي أخس الدرجات إلى أحسنها، وصاروا أفضل الأمم في العلم، والزهد والعبادة، وعدم الالتفات إلى الدنيا، وطيباتها، ولا شك أن هذا أعظم المنة(٣) ، فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه محمدا

١) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٥ / ١١٦).
٢) ينظر تفسير المنار (٤ / ١٨٣).
٣) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٥٥ / ٢٤٢).

صلّى الله عليه وسلّم لكي يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان ، **وهذه الآية وما اشتملت عليه من نعمة وإن لم تعقب بالشكر كسابقتها ، لكنها ذكرت فى سياق الامتنان والتفضل والإحسان من الله تعالى على عباده ، لا سيما وقد ذكر – عز وجل – ما يقوِّى هذا الامتنان بأن بين مهمته – صلى الله عليه وسلم – العظيمة من تعليمهم آياته تعالى ، وتزكية نفوسهم من شوائب الشرك ومظاهر الوثنية وغيرها ، وتعليمهم الفقه والحكمة وسائر كل ما يخدم هذا الدين العظيم ، ويقوم به نفوسهم ، يقول جل وعلا: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ "** (١) ، **ولا شك أنها مهمة عظيمة اختاره المولى عز وجل واصطفاه لحملها ، فيجب أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة ، وشكره عز وجل على تلك النعمة** إنما يكون بإتباع رسول الله الكريم ، والاقتداء به ، والسير على هداه ، وفعل ما أمر به ، وتقديم أوامره على كل أمر من أمورنا ، وأن نترك ما نهانا عنه امتثالا **لأمره صلى الله عليه وسلم ، وأنْ نلتزم بسنَّته وأنْ نُعظِّمها ، ونعمَلَ بها** ، ونُطبِّقها كما هي من غير إفراطٍ ولا تفريط، وأن ننأى عن الابتداع والاختراع، ونرجع عند التنازُع إلى الله والرسول، وأن نقدم قولَه صلى الله عليه وسلم وفعلَه على كلِّ قول وفعلٍ ؛ فلا نعتقدُ إلا ما اعتقَدَه رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلم ، ولا يتعبد بعبادة لم يتعبدها عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى: " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"(٢).

المطلب الثالث

نعمة التيسير في الفرائض والتكاليف

إن شريعة الإسلام خاتمة الشرائع، أنزلها الله للناس كافة، في مشارق الأرض ومغاربها، للذكر والأنثى، والقوي والضعيف، والغني والفقير، والعالم والجاهل،

١) سورة التوبة آية ١٢٨.
٢) سوررة الحشر آية ٧.

والصحيح والمريض ، ومن أجل هذا جاءت بفضل الله ميسوراً فهمُها، سهلا العملُ بها، تسعُ الناس أجمعين، ويطيقها كلُّ المكلَّفين. دين الإسلام رخصة بعد عزيمة، ولين من غير شدّة، ويسرٌ من غير عسر، ورفع للحرج عن الأمة ، فكان التيسير مقصدٌ من مقاصد هذا الدين وصفة عامّة للشريعة، في أحكامها وعقائدها، وأخلاقها ومعاملاتها، وأصولها وفروعها ، فقد جعل المولى تبارك وتعالى مبدأ التيسير مبدأ شرعي ، ونعمة وسمة لهذه الشريعة المحمدية ، فأحكام الشرع تَطبع في نفس المسلم السماحةَ والبعدَ عن التكلّف والمشقة، والتعلقَ الوثيق برحمة الله وعفوه وصفحه وغفرانه ، فإذا استعرضنا آيات القرآن الكريم وجدنا ملامح التيسير واضحة المعالم بارزة الأركان كقوله تعالى: " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " ، وقوله تعالى:" يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا "([1]) أي: يريد الله بما شرعه لكم من أحكام، وبما كلفكم به من تكاليف هي في قدرتكم واستطاعتكم أن يخفف عنكم في شرائعه وأوامره ونواهيه، لكي تزدادوا له في الطاعة والاستجابة والشكر وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً " أي لا يصبر على مشاق الطاعات، فكان من رحمة الله – تعالى – به أن خفف عنه في التكاليف. **وهذا اليسر والتخفيف في التكاليف من أبرز نعم الله عز جل ، ومن أجلّ مميزات الشريعة الإسلامية ، لذلك فإن نعمة التيسير فى الفرائض والتكاليف نعمة جليلة تستحق الشكر لواهبها وإخلاص العبادة له تعالى وحده ، قال تعالى: " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا([2]) ، ونظراً لأن معالم التيسير في هذه الشريعة الغراء متعددة الجوانب ، واضحة الأدلة ، فقد آثرنا منها بعض النعم التى أشار إليها القرآن الكريم ، والتى ذيّلت بوجوب شكره عز وجل على تلك النعم ، ومنها:**

١ . نعمة التيسير فى تشريع الصيام:

كذلك من نعمه تعالى الدينية نعمةُ التوفيق للطاعة وحُسن العبادة، ونعمةُ بُلوغ هذا الشهر الكريم والإعانة على صيامه وقيامه ، كما أن نعمة التيسير فى هذا التشريع تعد نموذجاً واضحاً ، ومنة ظاهرة من الله عز وجل على عباده ، ومراعاة للإنسان وطبيعته، فتشريع الصيام نموذج واضح على هذا الأمر .فلم يفرض الصوم جملة واحدة، وإنما شرع على التدرج، لذلك **يقول ابن القيم في**

١)سورة النساء آية ٢٨.
٢) سورة الطلاق آية ٧.

بيـان الحكمـة مـن ذلـك: " لما كان – أي الصوم –غيرَ مألوف لهم ولا معتاد، والطباع تأباه، إذ هو هجر مألوفها ومحبوبها، ولم تذق بعدُ حلاوته وعواقبه المحمودة، وما في طيه من المصالح والمنافع، فخيرت بينه وبين الإطعام، وندبت إليه، فلما عرفت علته – يعني حكمته – وألفته، وعرفت ما ضمنه من المصالح والفوائد: حتم عليها عيناً، ولم يقبل منها سواه، فكان التخيير في وقته مصلحة، وتعيين الصوم في وقته مصلحة، فاقتضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته ؛ لأن المصلحة فيه في ذلك الوقت" (١).

وقال ابن حجر الهيثمي: " وحكمته – أي التدرج – الرفق بالأمة ؛ لأنهم لما لم يألفوا الصوم كان وجوبه عليهم ابتداء فيه مشقة، فخيروا بينه وبين الفدية أولاً، ثم لما قوي يقينهم، واطمأنت نفوسهم: حتم عليهم الصوم وحده، ونظير ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أول ما بعث لم يكلف الناس إلا بالتوحيد فقط، ثم استمر على ذلك مدة مديدة، ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزمل، ثم نسخ ذلك كله بالصلوات الخمس، وكان كلما ازداد ظهوراً وتمكناً:ازدادت الفرائض وتتابعت، كل ذلك لما قررته من الرفق والتدرج في المراتب حتى تؤخذ بحقها "(٢) ، **ومن الآيات التى ذكرت هذه النعمة واستوجبت شكره عز وجل عليها قوله تعالى:** " **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** " **سورة البقرة آية ١٨٥.**

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أبهم المولى عز وجل فى الآية السابقة أمر الصوم في الأيام وجعله واجباً مخيراً على المطيق عيّنّ هنا وبت الأمر فيه بقوله تعالى: " شهر رمضان..." ، لأن ذلك أضخم وآكد من تعيينه من أول الأمر.

---

١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ (٢ / ٢٩) نشر / دار الكتب العلمية – بيروت بتصرف.

٢) إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام ص: ٧٨ لابن حجر الهيثمى بدون تاريخ.

معانى المفردات والتراكيب:

يمدح سبحانه وتعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره لإنزال القرآن العظيم فيه، وقد بينت هذه الآية أن الأيام المعدودات المذكورة في الآية السابقة(١) هي شهر رمضان، وذكرت أن الله تعالى شرف هذا الشهر بإنزال القرآن الكريم فيه، **والشهر**: مأخوذ من الشهرة، تقول شَهَرَ الشيء يَشْهَرُه شَهْرًا: إذا أظهره (٢) ، **وقال الزجاج:** سمي الهلال شهرًا لشُهْرتِه وبيانه ، وقيل: سُمي الشهر شهرًا باسم الهلال إذا أهلّ سمي شهرًا (٣)، **وسمي الشَّهْرُ** شهرًا لشهرة أمره في حاجة الناس إليه في معاملاتهم، ومحل ديونهم، وقضاء نسكهم في صومهم وحجهم وغير ذلك من أمورهم (٤) ، وارتفع " **شهر رمضان** " على البدل من الصيام، كأن المعنى: كتب عليكم شَهْرُ رمضانَ. ويجوز أن يكون ابتداءً، وخَبرُه الذي مع صلته، كقولك: زيد الذي في الدار ، وقال الأخفش: ارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، المعنى: تلك الأيام المعدودات التي فرضت صومها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان ؛ لأن قوله: " شَهْرُ رَمَضَانَ " تفسيرٌ للأيام المعدُودات، وتبيين لها، أراد: ذلكم شهر رمضان(٥). **واختلفوا في اشتقاق لفظ** " **رَمَضَانَ** ": **فقال بعضهم:** هو مأخوذ من الرمض، وهو حرُّ الحِجَارة من شدّة حَرِّ الشمس، فسُمي هذا الشهر رمضان ؛ لأن وجوبَ صَومه وافقَ بشِدَّة الحرّ ، وقيل: مأخذه من الرَّمَضي، وهو من السَحَاب والمطر: ما كان في آخرِ

---

١) إشارة إلى قوله تعالى:" أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" سورة البقرة آية ١٨٤.

٢) ينظر لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ ه (٤ /٤٣٢) ط / دار صادر ـ بيروت ١٤١٤ هـ.

٣) معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق ابراهيم الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ (١ / ٢٢٤) ط / دار الحديث ـ القاهرة تحقيق: عبد الجليل شلبى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤٤ م.

٤) ينظر التفسير البسيط للواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ (٣ / ٥٧٠) نشر عمادة البحث العلمى جامعة الإمام محمد بن سعود ط أولى / ١٤٣٠ هـ

٥) معانى القرآن لأبى الحسن المجاشعى المعروف بالأخفش المتوفى سنة ٢١٥ هـ (١ / ١٧١) نشر مكتبة الخانجى ـ القاهرة ط / أولى ١٤١١ هـ.

القَيْظ وأول الخريف، سمّي رمَضيًا لأنه يُدرِك سخونةَ الشمس وحَرَّها، فسمي هذا الشهر رمضان ؛ لأن وجوب صومه يغسل الأبدان من الآثام (١).

ولما خص هذا الشهر بهذه العبادة بين العلة لهذا التخصيص فقال:

" **الذى أنزل فيه القرآن** " أى أن الله سبحانه خصه بأعظم آيات الربوبية، وهو أنه أنزل فيه القرآن، فلا يبعد أيضا تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية وهو الصوم ، ذلك أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة ، فلما كان هذا الشهر مختصا بنزول القرآن، وجب أن يكون مختصا بالصوم(٢).

وقد حُكِى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: " إنا أنزلناه في ليلة القدر "(٣). وقال: " إنا أنزلناه في ليلة مباركة"(٤) ، ثم نزل بعد ذلك مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشهور والأيام (٥) ، و" **القرآن** " اسم لهذا الكتاب الذي أنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

ثم مدح الله تعالى هذا القرآن الذى أنزله بأنه هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه فقال: " **هُدًى لِلنَّاس** " أى حال كونه هاديًا للناس من الشرك والضلالة إلى التوحيد والإيمان.وحالة كونه أيضاً آيات " **بينات من الهدى** " أي: ودلائل وآيات وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقا بين الحق والباطل، والحلال، والحرام، فالهدى الأول محمول على أصول الدين، والهدى الثاني على فروع الدين ، وعطف قوله: " الفرقان " على " الْهُدَى" من عطف الخاص على العام، فكل أخص مما قبله ، " الهدى " صادق بالواضح وغيره كان

---

١) ينظر تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ(١٢ / ٢٦) ط / دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ط / أولى ٢٠٠١.
٢) ينظر مفاتيح الغيب (٥ / ٢٥٢).
٣) سورة القدر آية ١.
٤) سورة الدخان آية ٣.
٥) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٥٠٢).

معه دليل أم لا، **والـ** " **بينـات** " من الهدى صادقة بوجود الحجج معها أم لا، " وَالْفُرْقَانِ " هو الآيات البينات التي معها حجج (١).

والفرقان: مصدر فرق ، وقد شاع في الفرق بين الحق والباطل أي إعلان التفرقة بين الحق الذي جاءهم من الله وبين الباطل الذي كانوا عليه قبل الإسلام.

ثم أوجب المولى تبارك وتعالى على من شهد استهلال الشهرأي كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة فقال: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه ".

وبعد أن أوجب المولى تعالى الصوم، أعاد إباحة الترخيص في الإفطار، توكيدًا لأمره فقال تعالى: " ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر "وهذا من تمام نعمة الله على عباده. **هذا وقد اختلف العلماء في المرض الذي يبيح الفطر على أقوال: الأول:** هو الذي لا يطيق معه صاحبه القيام لصلاته. **الثاني:** كل مرض كان الأغلب من أمر صاحبه بالصوم الزيادة في علته زيادة غير محتملة. **الثالث:** كل مرض يسمى مرضا، ونسبه لمحمد بن سيرين، ورجح أن من أجهده الصوم جهدا غير محتمل من المرض فله الفطر(٢) ، وذكر القرطبي: أن الجمهور يرون أن من كان به مرض يؤلمه ويؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزيده صح له الفطر، وقد ذكر قبل ذلك أن للمريض حالتين: إحداهما: أن لا يطيق الصوم بحال، فعليه الفطر واجبا. الثانية: أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة، فهذا يستحب له الفطر، ولا يصوم إلا جاهل(٣) ، **كما اختلفوا في المسافة التي تبيح الفطر: فقال الثوري وأبو حنيفة:** ثلاثة أيام ، وقالوا: إن قوله تعالى: " فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ " يوجب الصوم، ولكنّا تركناه في الثلاثة

---

١) تفسير حدائق الروح والريحان (٣ / ١٥٧).

٢) ذكر تلك الأقوال الإمام الطبرى ينظر جامع البيان (٣ / ٤٥٨) ، ينظر الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ (٢ / ٧١) ، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور ، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، ط / أولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

٣) ينظر أحكام القرآن لأبى بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ (١ / ١١٠) نشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط / ثالثة ١٤٢٤ هـ ، تفسير القرطبى المسمى الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، نشر: دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

أيام للإجماع على الرخصة فيها، أما فيما دونها فمختلف فيه فوجب الصوم احتياطياً.

والمعتبر السير الوسط لا غيره من الإسراع والإبطاء ، **وقال الشافعي وأحمد:** هو مسيرة يومين وليلتين، ويقدر بستة عشر فرسخاً وكذا هو قول ابن عمر ، وابن عباس ، وأنهما كانا يفطران ويقصران في أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخا ، وقالوا: إن السفر الشرعي هو الذي تُقصر فيه الصلاة، وتعبُ اليوم الواحد يسهل تحمله، أمّا إذا تكرر التعب في اليومين فإنه يشق تحمله فيناسب الرخصة ، **وقال مالك:** مسافة الفطر مسافة القصر، وهي يوم وليلة. وقال: إنّ السفر أقل من يوم سفرٌ قصير قد يتفق للمقيم، والغالب أن المسافر هو الذي لا يتمكن من الرجوع إلى أهله في ذلك اليوم، فلا بدّ أن يكون أقل مدة للسفر يومٌ واحد حتى يباح له الفطر(١). و**أقول:** ونظراً لأن أمور العبادة ينبغى فيها الاحتياط ، لذا كان العمل بالثلاثة أحوط فلعل ما ذهب إليه أبو حنيفة يكون هو الأرجح والله أعلم بالصواب خاصة فى هذا الوقت الذى أصبحت فيه سبل السفر يسيرة وموفورة.

ولما رخص الله تعالى الفطر للمريض والمسافر بين سبب ذلك فى قوله: " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " أى: يريد الله في هذه الرخصة في الصيام وفي كل ما شرعه لكم من الأحكام، أن يجعل دينكم يسرا لا عسر فيه.

فهو استئناف بياني كالسبب لقوله: " ومن كان مريضا.. " إلخ بين به حكمة الرخصة أي شرع لكم القضاء ؛ لأنه يريد بكم اليسر عند المشقة.

واليُسْر في اللغة: معناه: السهولة، ومنه يقال للغِنَى والسَّعَة: اليَسَار؛ لأنه يتسهل به الأمور، واليد اليُسْرى قيل: على التفاؤل باليسر، وقيل: لأنه يتسهل الأمر بمعاونتها اليمنى(٢). **وقوله:** " **ولا يريد بكم العسر**" **نفي لضد اليسر**، وقد كان يقوم مقام هاتين الجملتين جملة قصر نحو أن يقول:" ما يريد بكم إلا اليسر"،

---

١) ينظر روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام للصابونى (١ / ٨٧) نشر مكتبة الغزالى - دمشق ط / ثالثة ١٤٠٠ هـ.

٢) ينظر المفردات ص ٨٩١.

لكنه عدل عن جملة القصر إلى جملتي إثبات ونفي ، لأن المقصود ابتداء هو جملة الإثبات لتكون تعليلا للرخصة، وجاءت بعدها جملة النفي تأكيدا لها.
ويجوز أن يكون قوله: " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " سبباً لجميع ما تقدم من قوله: " كتب عليكم الصيام.. " إلى هنا فيكون إيماء إلى أن مشروعية الصيام وإن كانت تلوح في صورة المشقة والعسر فإن في طيها من المصالح ما يدل على أن الله أراد بها اليسر أي تيسير تحصيل رياضة النفس بطريقة سليمة من إرهاق أصحاب بعض الأديان الأخرى أنفسهم(١).

ثم بين المولى عز وجل سبباً آخراً معطوفاً على ما قبله فقال:" ولتكملوا العدة ": أى شرع لكم ما ذكر من الأحكام في هذه الآية، لتكملوا عدة شهر رمضان أداءً أو قضاءً، فلا تنقصوا من عدته يومًا أو أكثر، فإن صيامه كله مفروض عليكم.
ثم عطف سبحانه سبباً ولكنه سبب غير متضمن لحكمة ، بل متضمن لمقصد إرادة الله تعالى وهو أن يكبروه تعالى وحده فقال: " ولتكبروا الله على ما هداكم " وفيه معناها وجهان: الأول: أن المراد منه التكبير ليلة الفطر قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا رأوا هلال شوال أن يكبروا ، الثانى: التعظيم لله سبحانه على ما وفق لهذه الطاعة ، والمعنى: ولتعظموا الله بالذكر له بما أنعم عليكم به، من الهداية التي خذل عنها غيركم من أهل الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثل الذي كتب عليكم فيه ، فضلوا عنه بإضلال الله إياهم، وخصكم بكرامته فهداكم له، ووفقكم لأداء ما كتب الله عليكم من صومه، وتشكروه على ذلك بالعبادة له(٢)

ثم ختم الآية بذكر العلة فى تشريعه لهذه الأحكام وترخيصه عز وجل فيما تستدعيه الضرورة إلى التجاوز عنه فقال: " وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " ، أى لكى تشكرون الله على رخصه بالمحافظة على ما أمركم الله به من أداء فرائضه،

١) ينظر التحرير والتنوير (٢ / ١٧٥) بتصرف.
٢) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ (٣ / ٤٧٨) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، نشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

وترك محارمه، وحفظ حدوده ، ولكى تشكرونه على نعمة الصيام المشتمل على فوائد خلقية واجتماعية وصحية عديدة، وعلى نعمة الترخيص بالفطر للعذر، وقضاء ما أفطرتموه عند زواله ، أو لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق، وتيسير ما لو شاء عسر عليكم ، فإن قوله: " ولعلكم تشكرون " سبب آخر ولكنه أعم من مضمون جملة " ولتكبروا الله على ما هداكم " ، فإن التكبير تعظيم يتضمن شكرا والشكر أعم، لأنه يكون بالأقوال التي فيها تعظيم لله تعالى ويكون بفعل القرب من الصدقات في أيام الصيام وأيام الفطر، ومن مظاهر الشكر لبس أحسن الثياب يوم الفطر(١) ، **ولعل سر ختام الآية بهذه العلة: أن مجموع هذه الجمل الأربع سبب لما قبلها من قوله: " فمن شهد منكم الشهر " إلى قوله: " فعدة من أيام أخر ". ولذلك ذيل الآية بقوله: " لعلكم تشكرون " ؛ لأن قبلها تيسيرًا وترخيصًا**، فناسب ختمها بذلك، وختمت الآيتان قبلها بالتقوى، وهما قوله: " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ " وقوله: " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ " ؛ لأن القصاص والصوم من أشق التكاليف، فناسب ختمها بذلك، وهذا مطرد في القرآن، فحيث ورد ترخيص عقب ذلك بالشكر غالبًا، وحيث جاء عدم ترخيص عقب بالتقوى وشبهها، وهذا من محاسن علم البيان(٢) ، **ولذلك يقول الإمام الرازى فى وجوب شكر الله تعالى على تلك النعمة:** إن الله تعالى لما أمر بالتكبير وهو لا يتم إلا بأن يعلم العبد جلال الله وكبريائه وعزته وعظمته ، وكونه أكبر من أن تصل إليه عقول العقلاء، وأوصاف الواصفين، وذكر الذاكرين ، ثم يعلم أنه سبحانه مع جلاله وعزته واستغنائه عن جميع المخلوقات، فضلا عن هذا المسكين خصه الله بهذه الهداية العظيمة لا بد وأن يصير ذلك داعيا للعبد إلى الاشتغال بشكره، والمواظبة على الثناء عليه بمقدار قدرته وطاقته فلهذا قال: " ولعلكم تشكرون " (٣).

---

١) ينظر التحرير والتنوير (٢ / ١٧٧).
٢) ينظر البحر المحيط في التفسير لأبى حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ (٢ / ٢٠٥) ، تحقيق: صدقي محمد جميل ، نشر: دار الفكر - بيروت
طبعة: ١٤٢٠ هـ.
٣) ينظر مفاتيح الغيب (٥ / ٢٦٠).

٢ . نعمة الطهارة من الحدث ، وتشريع التيمم

إذا تأملنا نعمة الله عز وجل فى تشريع الطهارة من الحدث نجد أن المولى عز وجل ما ترك أمراً يتعلق بالطهارة إلا وأوجبه وجعل له فيه حكمة ، وأزال ما قد ينتج عنه من حرج ، **فلنتأمل كلام الإمام ابن القيم رحمه الله وهو** يتحدث عن هذه النعمة، حيث يقول :" تأمَّل أبواب الشريعة ووسائلها وغاياتها كيف تجدها مشحونة بالحكَم المقصودة، والغايات الحميدة التي شرعت لأجلها، التي لولاها لكان الناس كالبهائم، بل أسوأ حالاً، فكم في الطهارة من حِكمة، ومنفعة، للقلب، والبدن، وتفريح للقلب، وتنشيط للجوارح، وتخفيف من أحمال ما أوجبته الطبيعة، وألقاه عز النفس من درن المخالفات، فهي منظفة للقلب والروح والبدن، وفي غسل الجنابة من زيادة النعومة والإخلاف على البدن نظير ما تحلل منه بالجنابة ما هو من أنفع الأمور، تأملْ كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل، فجعل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والشم والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوب كلها، منها يدخل إليها، ثم جعل في اليدين وهما طرفاه وجناحاه اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرِّجلين اللتين بهما يمشي ويسعى. ولمَّا كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة: جعل مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجاً للخطايا من هذه المواضع([1]).

أيضا من نعمه تعالى على عباده فى العبادات والتكاليف مما يسمى بالطهارة الترابيــة ، وهــي " التــيمم " الـذي رخـصه الله عـز وجـل لعبـاده لتيـسير أداء العبادات ورفع الحرج ليقوم مقام الوضوء أو الغسل عند فقدان الماء أو العجز عن استعماله بسبب المرض أو الخوف منه، فقد شرع الله تعالى التيمم تيسرا على الناس وتسهيلا عليهم، ليتمكنوا من أداء الصلاة في الأماكن التي لا يجدون فيها الماء، وفي الأوقات التي يصعب عليهم فيها استعمال الماء، رحمة بهم ومراعاة لأحواله **والحكمة من تشريعه وجهان:**

---

١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتـوفى سـنة ٧٥١هــ ص ٢٣٠ ، نـشر / دار المعرفـة، بيـروت، لبنــان ، طبعـة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

أحـدهما: تقريـر لـزوم الطهـارة فـي نفـوس المـؤمنين ، وتقريـر حرمـة الـصلاة ، وترفيع شأنها في نفوسهم، فلم تترك لهم حالة يعدون فيها أنفسهم مصلين بدون طهارة تعظيما لمناجاة الله تعالى، فلذلك شرع لهم عملا يشبه الإيماء إلى الطهارة ليشعروا أنفسهم متطهرين وجعل ذلك بمباشرة اليدين صعيد الأرض التي هي منبع الماء، **الثانى:** أن التراب مستعمل في تطهير الآنية ونحوها ينظفون به ما علق لهم من الأقذار في ثيابهم وأبدانهم، مع ما في ذلك من تجديد طلب الماء لفاقده وتذكيره بأنه مطالب به عند زوال مانعه ، **ولا شك أنهما نعمتان عظيمتان من كريم رحيم بعباده رؤوف بهم تستحقا الشكر لواجدهما ، ومن الآيات التى ذكرت هاتين النعمتين واستوجبت شكره تعالى عليهما قول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة المائدة آية ٦.**

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن استقصى الله تعالى فى الآيات السابقة فى بيان ما يحل وما يحرم من الأطعمة والمنكوحات وذكر الأَحكامَ المتعلقة بهما، شرع في بيان أَحكامٍ أُخرى، تتعلق بالعبادات ، ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة، لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء فقال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ....."الآية.

كما أبرز صاحب المنار علاقة الآية بما قبلها فقال: أن الحدثين اللذين هما سبب الطهارتين هما أثر الطعام والنكاح، فلولا الطعام لما كان الغائط الموجب للوضوء، ولولا النكاح لما كانت ملامسة النساء الموجبة للغسل ولذلك ذكرهما فى هذه الآية(١).

١) ينظر تفسير المنار (٦ / ١٨٣).

سبب نزول قوله تعالى " فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ، أَوْ بِذَاتِ الجَيْشِ، انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى [ص:٥١] النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَقَالُوا: أَلاَ تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالنَّاسِ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، وَلاَ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخِذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا» فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا العِقْدُ تَحْتَهُ" (١).

معانى المفردات والتراكيب:

افتتحت الآية الكريمة بالنداء بقوله: "يأيها الذين ءامنوا "حيث استخدمت أداة النداء " يا " وهى للقريب وللبعيد(٢) ، فكأن النداء للمؤمنين جميعاً حاضرهم ومستقبلهم ، والإضافة فى المنادى هدفها التحضيض للمؤمنين حيث النداء موجه إليهم ، **ومعنى قوله:** " **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ** " أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة تعبيرًا بالمسبب الذي هو القيام عن السبب الذي هو الإرادة على حد قوله تعالى: " فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ "(٣) ؛ أي: إذا أردت قراءته.

---

١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التفسير باب قوله: "فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً "(٦ / ٥٠) ح رقم ٤٦٠٧.

٢) ينظر الجنى الدانى فى حروف المعانى لأبى محمد بدر الدين المرادى المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ص ٣٥٥ ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت ط / أولى ١٤١٣ هـ.

٣) سورة النحل آية ٩٨.

وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثًا ؛ أي: إذا أردتم فعل الصلاة والقيام إليها وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم... إلخ، رفعًا للحدث الأصغر، وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية في الصدر الأول. فقد روى الإمام مسلم من حديث بريدة قال: " كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله لقد صنعت شيئًا لم تكن تفعله ؟ فقال: "عمدًا صنعته يا عمر"(١).

ثم بدأت الآية فى عرض الأركان الأساسية في الوضوء ، فابتدأ بالوجه فقال: " **فاغسلوا وجوهكم** " ، والوجه مأخوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وله طول وعرض ، وحدُّ الوجهِ من مَنابِتِ شعرِ الرأسِ إلى ما انحدَرَ من اللَّحْيَيْنِ ؛ والذَّقَنِ طولًا، ومن الأذنِ إلى الأذنِ عرضًا، فيجبُ غسلُ جميعِه بالاتفاق، فإن كان فيه شعرٌ خفيفٌ يصفُ البشرةَ، وجبَ غسلُها معه، وإن كان يسترُها، أجزأَهُ غسلُ ظاهرها، ويستحبُّ تخليلُهُ ، ولا يجب إيصال الماء إلى داخل العين، خلافاً لابن عباس الذى أوجب غسل كل الوجه لقوله: " فاغسلوا وجوهكم" ، والعين جزء من الوجه، فوجب أن يجب غسله. **أما حجة الفقهاء** فى عدم وجوب إيصال الماء إلى العين: أنه تعالى قال في آخر الآية:" ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج " ، ولا شك أن في إدخال الماء في العين حرجا والله تعالى أعلم (٢). **و**" **إلى** " **فى قوله:** " **وأيديكم إلى المرافق**" للغاية، وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف ، فذهب البعض: إلى أن ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها دخل وإلا فلا ، وقيل: إنها تفيد الغاية مطلقا، وأما الدخول وعدمه فأمر يدور مع الدليل ، والجمهور على دخول المرفقين فى المغسول ولذلك قيل " إلى "بمعنى مع كقوله تعالى " لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُم "(٣). والمرافق:جمع مرفق وهو مجتمع طرفى الساعد والعضد ويسمى مرفقا ، لأنه

١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد (١ /٢٣٢) ح رقم ٢٧٧.
٢) ينظر مفاتيح الغيب (١١ / ٣٠٢).
٣) سورة النساء آية ٢.

الذي يرتفق به أى يتكأ عليه من اليد(١). **وقد اختلفَ الفقهاء في قدرِ الواجبِ من مسحِ الرأسِ:**

فقال مالكٌ وأحمدُ: يجب مسح جميعُ الرأس، وقالوا: إن الباء زائدة، والمعنى: وامسحوا رؤوسكم، وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس. واستدلوا بقوله تعالى في التيمم:" فامسحوا بوجوهكم" ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقا.

وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربع الرأس ، وقال: إن الباء للإلصاق أي ألصقوا أيديكم برءوسكم، وقال الشافعيُّ: قدرُ ما يُطلقُ عليه اسمُ المسح ، وقال: هي للتبعيض، وذلك يقتضي أنه يجزئ مسح بعضه. وقال: قد ورد في الوجه والتحديد بالغاية في اليدين والرجلين بخلاف الرأس فإنه لم يرد فيها تحديد ، ولأنه قد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفي مسح بعض الرأس(٢) ،

ثم يأتى الفرض الرابع بعد الأمر بمسح الرأس: فقال: " **وأرجلكم إلى الكعبين**".

وكان سياق النص يقتضي كسر اللام في " أرجلكم " ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين. وغير معطوفة على "برءوسكم" وهذا يعني أن الرجلين لا تدخلان في حيز المسح ؛ إنما تدخلان في حيز الغسل. ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه، ولكنَّها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها. ولم يأت الحق بالممسوح في جانب والمغسول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدي وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين فيقول: " وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكعبين " **والكعبان:** هما العظمانِ الناتئانِ من جانبِ القدمين، وهما مجتمعُ مفصلِ الساقِ والقدمِ (٣). **ووجه جمع المرافق وتثنية الكعاب:** إنه لما كان في كل رِجْل كعبان ولم يكن في كل يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب تنبيها على أن لكل رجل كعبين، بخلاف المرافق فإنها جمعت ، لأنه لما

---

١) ينظر تفسير روح البيان لإسماعيل حقى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ (٢ / ٣٥٠) ، ط / دار الفكر - بيروت.

٢) ينظر فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٥٢٠ هـ (٢ / ٢١ ، ٢٢) ، / دار الكلم الطيب - دمشق بيروت ، دار ابن كثير ط/ أولى ١٤١٤ هـ.

٣) ينظر تفسير الشيخ الشعراوى المتوفى سنة ١٤١٨ هـ (٥ / ٢٩٥٥) نشر مطابع أخبار اليوم سنة ١٩٩٧ هـ.

كان في كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره(١). **والحكمة فى تخصيص الأعضاء الأربعة فى الوضوء قيل:** إن آدم عليه السلام لما توجه إلى الشجرة بالوجه وتناولها باليد ومشى إليها بالرجل ووضع يده على رأسه أمره بغسل هذه الأعضاء تكفيرا للخطايا. **وقيل:** خص بغسل هذه الأعضاء الأمة المحمدية ليكونوا غراً محجلين بين الأمم يوم القيامة(٢)، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة: " أنه تَوَضَّأُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ، ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ "، ثُمَّ قَالَ: " هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ. وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ "(٣).

ثم شرع فى بيان حكم الحدث الأكبر إثر بيان حكم الحدث الأَصغر فقال: " وإن كنتم جنباً فاطهروا " ، وكلمة جُنُب من الألفاظ التي يستوي فيها الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، لجريانها مجرى المصدر، فيقال: رجل جنب، وامرأة جنب، وهما جنب، ورجال ونساء جنب.. واشتقاقه من المجانبة بمعنى المباعدة، لأن الجنابة معنى شرعي يستلزم من المسلم اجتناب الصلاة وقراءة القرآن ومس المصحف ودخول المسجد إلى أن يتطهر(٤) ، والمعنى: وإن كنتم أصابتكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها " فاطهروا "، فهذا أمر بالطهارة على الإطلاق بحيث لم يكن مخصوصا بعضو معين دون عضو، فكان ذلك أمرا بتحصيل الطهارة في كل البدن على الإطلاق، ولأن الطهارة الصغرى لما كانت مخصوصة ببعض الأعضاء لا جرم ذكر الله تعالى تلك الأعضاء على التعيين، فههنا لما لم يذكر شيئا من الأعضاء على التعيين علم أن هذا الأمر

---

١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية (٢ / ١٦٤).
٢) ينظر تفسير روح البيان (٢ / ٣٥٢).
٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء (١ / ٢١٦) ح رقم ٢٤٦ هـ.
٤) ينظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى (٤ / ٦٤).

أمر بطهارة كل البدن ، وهذا التطهير هو الاغتسال كما قال في موضع آخر " ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا " (١).

ولما بين الله سبحانه وتعالى وجوب الطهارتين: الوضوء والغسل، وكان المسلم لا بد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك في اليوم، ولا بد له من الغسل في كل أسبوع مرة أو أكثر غالبًا.. بين الرخصة في تركهما عند المشقة أو العجز؛ لأن الدين يسر لا حرج فيه ولا عنت فشرع سبحانه في بيان الاعذار التي تبيح التيمم من أجل الطهارة عند العجز عن استعمال الماء فقال تعالى: " وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى " ؛ أي: وإنْ كنتم مرضى مرضًا يضره الماء أو يشق فيه استعمال الماء جلديًّا كان كالجدري والجرب وغيرهما من القروح والجراح أو غير جلدي كالباطني " أَوْ " مستقرين "عَلَى سَفَرٍ " طويلًا أو قصيرًا، طاعة أو غيرها، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل (٢).

والغائط: المكان المنخفض من الأرض، وهو كناية عن قضاء الحاجة من بول وغائط ، **وملامسة النساء:** هي المباشرة المشتركة بين الرجال وبينهن، وكل من التعبيرين كناية على سنة القرآن في النزاهة ؛ كالتعبير بالجنابة هنا، وبالمباشرة في سورة البقرة فى قوله تعالى: " فالآن باشروهن "(٣) أى: إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث المرض أو السفر أو فقدان الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين " فتيمموا صعيدا طيباً " **ومعنى قوله: " فتيمموا صعيداً طيباً** ": أي فاقصدوا ترابا، أو مكانا من وجه الأرض طاهرا، لا نجاسة عليه، فاضربوا بأيديكم عليه، وألصقوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين، بحيث يصيبها أثر منه.

ولما بين فرض الوضوء وفرض الغسل، وما يحل محلهما عند تعذرهما أو تعسرهما ؛ تذكيرا بهما ومحافظة على معنى التعبد فيهما، وهو التيمم بين حكمة شرعهما لنا، مبتدئا ببيان قاعدة من أعظم قواعد هذه الشريعة السمحة، ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان بعض مظاهر رحمته بعباده، ورعايته لمصالحهم فقال: "ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج " أي: ما يريد الله ليجعل

---

١) سورة النساء آية ٤٣.
٢) تفسير حدائق الروح والريحان (٧ / ١٤٦)
٣) سورة البقرة الآية ١٨٧.

عليكم فيما شرعه لكم في هذه الآية ولا في غيرها أيضا حرجا ما ؛ أي أدنى ضيق وأقل مشقة ؛ لأنه تعالى غني عنكم، رءوف رحيم بكم، فهو لا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم ، فهذه الجملة سبب لرخصة التيمم ، ونفي الإرادة هنا كناية عن نفي الجعل ؛ لأن المريد الذي لا غالب له لا يحول دون إرادته عائق(١). ومعنى قوله: " وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ " أى: ولكن يريد بما شرعه لكم منها أَن يطهرَكُم من الأَدناس والأَقذار، والذنوب والأَوزار؛ لأَن الوضوءَ والغسل كما ينظف الجسم من الأَقذار يكفر الله تعالى به الذنوبَ والخطايا ، ولأَن التيمم بالغبار الطاهر النظيف مَظْهَرٌ من مظاهر التواضع والخضوع لله ، فقد أَخرج مسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا تَوضَّأَ العبدُ المسْلمُ فغَسَلَ وجَهَهُ، خَرَج من وجهِه كل خَطيئةٍ نَظَر إِلَيْها بِعينيْهِ مع الماءَ، فإذا غَسلَ يَديْهِ، خَرجَ مِن يديْهِ كُلُّ خَطيئةٍ بطشتْهَا يداهُ مع الماء، فإذا غَسل رِجليْهِ، خرجَتْ كُل خَطِيئة مَشَتْها رِجْلاهُ مع الماء حَتى يَخْرجَ نقيًّا مِنَ الذنُوبِ "(٢).

ثم عطف على ذلك السبب سبباً آخر فقال:" **وليتم نعمته عليكم** " أي: يكمل نعمة الإسلام بزيادة أحكامه الراجعة إلى التزكية والتطهير مع التيسير في أحوال كثيرة ، فالإتمام إما بزيادة أنواع من النعم لم تكن، وإما بتكثير فروع النوع من النعم(٣) **ثم بين السبب المرجو من تعداد النعم التي امتن الله بها على المسلمين فقال:** " **لعلكم تشكرون** " ، **أى** لكي تشكروا الله على نعمه الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية التي أنعمها عليكم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم ، فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين(٤) ، أو ليعدكم بذلك لدوام شكره ؛ فتكونوا أهلا له، ويكون مرجوا منكم لتحقق أسبابه، ودوام المذكرات به، فتعنوا بالطهارة الحسية والمعنوية، وتقوموا بشكر النعم الظاهرة والباطنة، لأنكم متى شكرتم زادكم من

١) ينظر التحرير والتنوير (٦ / ١٣١).
٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة ــ باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (١ / ٢١٥) ح رقم ٢٤٤.
٣) ينظر التحرير والتنوير (٦ / ١٣٢).
٤) ينظر فتح القدير (٢ / ٢٣).

فضله ومننه([1]) **ولعل تذييل الآية بقوله:** " **لعلكم تشكرون** ، ذلك أنه تعالى لما أمر العبد بإيصال الماء إلى هذه الأعضاء المخصوصة وكانت طاهرة لم يعرف العبد في هذا التكليف فائدة معقولة، فلمَّا انقاد لهذا التكليف.. كان ذلك الانقياد محض إظهار العبودية، فأزال هذا الانقياد عن قلبه آثار التمرد، فكان ذلك طهارة للقلوب والأبدان([2]) ، وقوله: " **وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ** " **ليجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح**، والإنسان إنما هو روح وجسد. والصلاة تطهر الروح وتزكي النفس، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعود المصلي مراقبة ربه في السر والعلن، وخشيته حين الإساءة، والرجاء فيه لدى الإحسان، والطهارة التي جعلها الله شرطًا للدخول في الصلاة، ومقدمة لها، تطهر البدن وتنشطه، فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها، فما أجل نعم الله على عباده! وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه! ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله: " لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " ، **ولذلك يقول البقاعى فى تعقيب الآية بقوله:** " **لعلكم تشكرون** " أي وفعل ذلك كله هذا التسهيل وغيره ، ليكون حالكم لما سهل عليكم حال من يرجى صرفه لنعم ربه عليه في طاعته المسهلة له المحببة إليه "(٣).

٣ . نعمة تشريع كفارة اليمين

أيضا من نعمه تعالى على عباده ورحمته بهم تشريع الكفارات ، فقد يقع المسلم في أخطاء تتعارض والدين الإسلامي ؛ لذلك وُجدت الكفارات كجوابر يجبر بها المسلم ما فعله أو وقع به رحمة من الله – سبحانه وتعال ، فهي إصلاح لما قد أفسده ، وتصويب لما قد أخطأ به، وإزالة لآثار ما قد ترتب على فعله ، كما أنه قد تمنع الكفارة العودة للفعل نفسه الذي أخطأ فيه المسلم ؛ وتجعله يعيد التفكير قبل الوقوع في تصرف يستوجب الكفارة، فمثلا كفارة القتل الخطأ تكون فيها تعويض على المجتمع عما أزهق الإنسان من النفس، بإحياء نفس غيرها،

---

١) ينظر تفسير المنار (٦/ ٢١٤)..

٢) ينظر مفاتيح الغيب (١١ / ٣١٨) ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري المتوفى سنة ١٣١٦هـ (١ / ٢٥٤) ت: محمد أمين الصناوي ، نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط /أولى - ١٤١٧ هـ.

٣) ينظر الدر فى تناسب الآيات والسور (٦ / ٣٧).

وتخليصها من الرقّ، إذ الرقّ أشبه ما يكون حكماً بالموت ، وفي إطعام الفقراء تخليص نفوس من الجوع والعوز والحرمان ، ومنع لهم من الوقوع في السرقات ، والصيام تخليص للنفس من أدران السيئات، وسموٌّ بها إلى درجة التقوى، والبعد عن المنكرات ، .وكفارة الظهار مثلاً إحباط للزور الذي ارتكبه المُظاهر حين شبّه زوجته بأمه، واعتدى على حرمة خليلته ، وكفارة اليمين محو لآثارها المترتبة على الحنث من لحوق الذنب به، وحصول الإثم منه (١) ، **ولا ريب فى أن ذلك التشريع نعمة عظيمة ومنة جليلة منه عز وجل تستوجب شكره تعالى عليها ، لما رأينا من أن هذه الكفارات فيها بعض التعويض عمّا فات، وإحداث إصلاح لما وقع من المفاسد والخطيئات، وفتح باب القُرْب إلى الله عزّ وجل ، ونظراً لأن الكفارات متعددة، ومتنوعة، لكننى اقتصرت على واحدة منها وهى كفارة اليمين لتعلقها بموضوع البحث وهى قول الله تعالى:**

" لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة المائدة آية ٨٩.

مناسبة الآية لما قبلها:

هذه متعلّقة بما قبلها ؛ لأن الله تعالى بعد أن نهى عن تحريم الطّيّبات بسبب قوم أرادوا الزّهد والتّقشّف والتّرهّب في الحياة تقرّبا إلى الله، سألوا النّبي صلّى الله عليه وسلّم عمّا يصنعون بأيمانهم التي حلفوها، فأجابهم الله عزّ وجلّ بإنزال حكم كفارة الأيمان.

سبب نزول هذه الآية.

روى فى سبب نزول الآية السابقة أن قوما من الصحابة حرموا على أنفسهم المطاعم والملابس واختاروا الرهبانية ، وحلفوا على ذلك فلما نهاهم الله تعالى

---

١) الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي للدكتور مُصطفى الخِنْ، الدكتور مُصطفى البُغا، علي الشّرْبجي (٣ / ١١٤) نشر / دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ،ط الرابعة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م بتصرف.

عنها قالوا: يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا فأنزل الله:" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم "(١).

معانى المفردات والتراكيب:

بدأت الآية باستئناف ابتدائي نشأ بمناسبة قوله تعالى فى الآية السابقة: " لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم "(٢) ، لأن التحريم يقع في غالب الأحوال بأيمان معزومة، أو بأيمان تجري على اللسان لقصد تأكيد الكلام.فقال: " لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم " ، **ويمين اللغو: هي ما يجري على اللسان بلا قصد، وذلك عند اللجاج والغضب** والعجلة ، وعلى هذا فمعنى قوله: " لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ": أي لا يؤاخذكم الله بالأَيمان التي تحلفونها بلا قصد ، كما يقول الرجل في حلفه من غير قصد ولا نية لا والله، وبلى والله، مما يجرى على الأَلسنة من غير قصد ، فلا مؤاخذة على هذه الأَيمان: بكفارة في الدنيا، ولا بعقوبة في الآخرة ؛ لأَنها عادة لسان(٣) ، ولكن الله يؤاخذكم بما يصدر عنكم من الأَيمان التي أكدتموها بالقصد والتصميم.

ولما أثبت المؤاخذة وأنها كانت عن عمد وقصد سبب عنها بقوله: " **فكفارته** "

أي الأمر الذي يستر النكث والحنث عن هذا التعقيد، ويزيل أثره بحيث تصيرون كأنكم ما حلفتم ، **ثم بينت الآية أن الواجب في كفارة اليمين أحد أمور الثلاثة على التخيير فقال:** " **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** ": فالذي يُكفِّرُ عَقْدَ اليمين إذا أُريد الحنث فيها ممن حلف أَنه سيفعل كذا، أَو حلف أَنه لن يفعل كذا، ثم راجع نفسه فرأَى أن تنفيذ اليمين سَيَحْرِمُهُ خيرًا كثيرا فعليه أن يَنْقُضَ يمينَهُ، وأَن يُكفِّرَ عنها لقول النبى صلى الله عليه وسلم لعبدِ الرحمنِ بنِ سَمُرَةَ: " لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ

---

١) ينظر أسباب نزول القرآن لأبى الحسن علي بن أحمد الواحدي،المتوفى سنة: ٤٦٨هـ ، تحقيق / عصام بن عبد المحسن الحميدان ص ٢٠٥ نشر / دار الإصلاح – الدمام ، ط /الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م عن ابن عباس ، وكذا أخرجه ابن جرير الطبرى (٧ / ٧) عن عكرمة وقتادة وأبي قلابة بمعناه، وهو مرسل صحيح الإسناد ، مفاتيح الغيب (١٢ / ٤١٩).

٢) سورة المائدة آية ٨٧.

٣) ينظر الأم لأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ (٧ / ٦٦)نشر دار المعرفة - بيروت ١٤١٠ هـ ، التفسير الوسيط (٣ / ١١٤٧)

إِنْ أُوتيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ، وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ" (١).

وقالَ – صلى الله عليه وسلم –: "إِنِّي وَاللهِ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتيتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، وَتَحَلَّلْتهَا"(٢). **وكفارة اليمين إذا حنث فيه أحد ثلاث أمور:الأول: إطعام عشرة مساكين** وجبةً واحدةً لكلَّ منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم لا من أرْدَئِه ولامن أَجودِه ولذلك قال: " من أوسط " ، أى من أوسط ما تطعمون من أقصده، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله، ومنهم من يقتر ، فمن كان أَكثر طعامه وطعام أَهله خبزَ البُرَّ، وأكثرُ إدامه اللحمَ بالخضر أو بدونها، فلا يجزئُ ما دون ذلك. والأعلى يجزئ على كل حال ، لأنه من الوسط وزيادة(٣) ، **وأَجاز أَبو حنيفة** إطعام مسكين واحد عشرة أَيام ، لأن التعريف بقدر ما يطعم ، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه ، لكن ذهب الشافعى: إلى أنه لا يجوز أن تدفع الكفارة إلا إلى عشرة مساكين ، ولا يكفى مسكين واحد ، **وحجة الشافعى:** أن الله تعالى نص على العشرة فلا يجوز العدول عنه وأيضاً فيه إحياء جماعة من المسلمين وكفايتهم يوماً واحداً فيتفرغون فيه لعبادة الله تعالى ولدعائه ، فيغفر للمكفر بسبب ذلك (٤).

الثانى . كسوة عشرة مساكين: الكسوة في اللغة معناها: اللباس، وهي كل ما يكتسي به (٥) ، وهى تختلف باختلاف البلاد والأَزمنة – كالطعام – فيجزىءُ من غالب ما يكسو به أهله، لا من الأرْدَأ ولا من الأجود. والأعلى يجزئُ على كل حال. **الثالث . تحرير رقبة:** قيل: " رقبة " والمراد: جملة الشخص ؛ لأنه مشبه بالأسير الذي يفك عن رقبته ويطلق، والرقبة المحررة في الكفارة: كل رقبة

---

١) أخرجه البخارى أول كتاب الأيمان والنذور (٨ / ١٢٧) ح رقم ٦٦٢٢.
٢) أخرجه البخارى كتاب الأيمان والنذور ، باب لا تحلفوا بآبائكم (٨ / ١٣٢) ،ح رقم ٦٦٤٩.
٣) ينظر الكشاف (١ / ٦٧٣) بتصرف بالزيادة.
٤) ينظر أحكام القرآن لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ (٤ / ١١٧) ، تحقيق: محمد صادق القمحاوي - نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٠٥ هـ ، مفاتيح الغيب (١٢ / ٤٢٢).
٥) ينظر تهذيب اللغة للأزهرى (١٠ / ١٧٠) مادة " كسا "

سليمة من عيب وعاهة تمنع من العمل، صغيرة كانت أو كبيرة، ذكرًا أو أنثى، بعد أن تكون مؤمنة(١) ، كما لا يشترط أَن تكون الرقبةُ مؤمنةً عند أبي حنيفة، فإنه يجزئ عنده عتق الكافرة خلافا للشافعي ومالك وأحمد فقد اشترطوا الإيمان: واحتج الشافعى: بأن الله تعالى قيد بالإيمان في كفارة القتل، وأطلق في غيرها، والمطلق يحمل على المقيد(٢).

قال أبو إسحاق: خُيِّر الحالف بين هذه الثلاثة، وأفضلها عند الله أكثرها نفْعًا وأحسنها موقعًا من المساكين أو من المعتق، فإن كان الناس في جدب لا يقدرون على المأكول إلا بما هو أشد تكلفًا من الكسوة والإعتاق فالإطعام أفضل ؛ لأن به قوام الحياة ، وإلا فالإعتاق والكسوة أفضل (٣) ، **وإنما قدم الإطعام على غيره لوجوه: الأول:** أن المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب ، لأنها لو وجبت على الترتيب لوجبت البداءة بالأغلظ، **الثانى:** لأنه أسهل ؛ ولكون الطعام أعم وجودًا،أى أنه تعالى يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف ، **الثالث:** لأن الإطعام أفضل عن الإعتاق على ما قيل ؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام، أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته(٤).

ثم بين المولى عز وجل أن من عجز عن واحد من الثلاثة المتقدمة، فعليه أَن يُكَفِّرَ بصوم ثلاثة أَيام وهو أَيسر. فإن عجز عن الصوم لمرض صام عند القدرة، فإن لم يقدر فأَمره مفوض إلى الله تعالى: يُرْجَى له عَفْوُ الله ورحمته – إذا صحت نيته ، والاستطاعة: أن يكون ذلك القَدْرُ اللازمُ في الكفارة من الإطعام والكسوة والعتق – فاضلا عن قُوتِهِ وقُوتِ عياله، يومَه وليلتَهُ. وفاضلًا كذلك، عن كسوته بِقَدْرِ ما يطعم أَو يكسو أَو يعتق.

---

١) ينظر جامع البيان للطبرى (١٠ / ٥٥٣) ، زاد المسير (١ / ٥٨٠).
٢) ينظر الأم للشافعى (٧ / ٧٥) ، تفسير البغوي لمحيي السنة، أبى محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المتوفى سنة٥١٠هـ (٢ / ٧٩) تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
٣) ينظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج (٢ / ٢٠٢).
٤) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٨ / ٢٨).

ولما تم ذلك أكده في النفوس وقرره بقوله: " ذلك " أي الأمر العدل الحسن الذي ذكر " كفارة أيمانكم " أي المعقدة " إذا حلفتم " وأردتم نكثها سواء كان ذلك قبل الحنث أو بعده. ثم عطف عليه لئلا تمتهن الأيمان لسهولة الكفارة قوله: " وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ": أَي فلا تحلفوا ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً، فإنه سبحانه عظيم، ومن أكثر الحلف وقع في المحذور ولا بد ، فقلِّلوا منها، ولا تبذلوها في أتفه الأمور وأحقرها، واحفظوها من أن تنكثوها ما لم تكن من فعل برّ أو إصلاح بين الناس ، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلًا عن الأيمان الكاذبة فلا تحلفوا إلا لإحقاق حق أَو دفع باطل(١)، قال تعالى:" وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا "(٢). **ولما اشتملت هذه الآيات من البيان والإرشاد والوضوح على ما يدهش الإنسان كان كأنه قيل:** هل عرفتم كل ما يتعلق بهذا الأمر فنبه من هذه الغفلة بقوله: " **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ** ": فهى تذييل قصد به التذكير بنعم الله ، أي مثل ذلك البيان الشافي، يبين الله لكم أَعلام شريعته وأَحكام دينه ، وجميع ما تحتاجون إليه من أمور دينكم(٣).

ثم ختم تلك النعمة بحثهم على شكره عز وجل عليها فقال: " لعلكم تشكرون " أى: لتقوموا بشكره على ما أرشدكم إليه، من تشريعات نافعة تعلمكم ويسهل عليكم المخرج منها ، أو لكى تشكروا نعمه التي أنعم بها عليكم التي من أجلها بيان آياته وأحكام شريعته ، وهدايته إياكم وتوفيقه لكم ، أو ليعدّكم ويؤهّلكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذي يحبه ويرضاه ويكون سببا فى المزيد من فضله وإحسانه(٤). **وإنما عقب على تلك النعمة بقوله: لعلكم تشكرون** ": لأن هذه الآية الكريمة وما قبلها قد اشتملتا على أحكام وحِكَم وتنبيه وإرشاد وإخبار، وأمر ونهى ، وأحكام ميسرة، وتشريعات حكيمة، وهدايات جليلة مع ما فيها من الاعتبار على نِعَم جسيمة وسنن جليلة عظيمة، حيث علمهم الله تعالى هذه الأحكام التى لم يكونوا يعلمون شيئا عنها ، ومن ثم عقب على ما منَّ الله به

١) المرجع السابق (٨ / ٣٠).
٢) سورة البقرة آية ٢٢٤.
٣) ينظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٤ / ٢٦٧) بتصرف
٤) بنحو ذلك المعنى ذكر صاحب المنار (٧ / ٣٤).

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها بيان المُربى لها في قوله على سبيل التعليل المؤذن بقطعها إن لم توجد العلة: **فقال:** " **لعلكم تشكرون**" أي لكى يحصل منكم الشكر بحفظ جميع الحدود الآمرة والناهية ، ولكى تستمروا على شكر الله وطاعته، وتواظبون على خشيته ومراقبته ، فتنالون ما وعدكم من فلاح وسعادة([1]).

١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦ / ٢٩٠).بتصرف بالزيادة.

المبحث الثانى
النعـــمة الدنيوية

خلق اللّه سبحانه وتعالى العباد ومنحهم من رعايته وفضله وأفاض عليهم من رحمته، واستخلفهم في الأرض وزودهم بكل أدوات الخلافة من تركيب خاص وتكوين لائق بذلك وتسخير للطاقات الكونية، ولذلك كان على البشرية جمعاء أن تتفكر في آيات اللّه وبدائع خلقه وآثار صنعه، فتدركه بآثار قدرته وتستشعر عظمته برؤية حقيقة إبداعه، ومن ثم يخشاه الناس حق الخشية، ويعبدونه حق العبادة بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر؛ حتى لا يركبهم الغرور، ويعرفوا أنهم هم الفقراء إلى اللّه وأن الله هو الغنى الحميد ، كما خلق الله – تعالى – الإنسان في هذه الدنيا وكلَّفه بمهمَّة – كما هو شأن كلِّ شيءٍ له مهمَّة – أن يعبده، ويعمرَ هذه الأرض، ويملأها خيرًا ؛ قال – تعالى :- "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون " (١) ، وسخَّرَ شيءٍ لهذا الإنسان قال تعالى " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً "(٢). **وأما ما سنذكره من آيات مشتملة على نعمة إنما هي مجرد أمثلة تؤكد ما ذهبت إليه من أن الله تعالى يسر للإنسان سبل حياته زماناً ومكاناً، وإلا فآيات التسخير كثيرة وفوائدها جمة** ، وحتى يؤدِّي الإنسان مهمَّته، ويعبد الله حقَّ عبادته ؛ لا بدَّ أن يتحقق فيه أمران: **أولهما** أن يكون أمامَ البلاء صابرًا ، **ثانيهما:** أن يكون أمام النِّعمة شاكرًا. لذا آثرت بعض النعم لأهميتها ولما لها من نفع عظيم فاستوجبت شكره تعالى ، ولتعلقها بموضوع البحث ، **وإليك بعض هذه النعم:**

المطلب الأول
نعمتا الليل والنهار

إن نعمة تعاقب الليل والنهار دليل واضح على عظمة الله وقوة سلطانه وتوحيده، وهو أيضا نعمة ورحمة بالمخلوقات جميعا من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وبالنسبة للإنسان ففي الليل دعة وهدوء، وسكون وراحة من عناء العمل، وفي

١) سورة الذاريات آية ٥٦.
٢) سورة لقمان آية ٢٠.

النهـار حركـة وعمـل وتكـسب وطلـب لـرزق الله تعـالى ، وتلـك النعمـة تـستوجب الشكر، وتستحق حمد الله على الدوام ، ويكون الشكر بأنواع العبادات في الليل والنهار، فمن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل.

ومـن الآيـات التـى ذكـرت هـاتين النعمتـين واسـتوجبت شكـره تعـالى عليهـا قولـه تعـالى: " **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" سورة القصص آية ٧٣.**

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أنْ فصَّل الله تعالى فى الآيتين السابقتين القولَ في الليل والنهار كلّ على حدة جمعهما فى هذه الآية ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده لتذكير الناس بما يجب عليهم من الحمد له، وشكر المنعم المتفضل به.

معانى المفردات والتراكيب:

هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، فقد ذكر عز وجل فى هذه الآية انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاء الفضل بالمشي والتصرف وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار، فعدد النعمة بالأغلب وإن وجد من يسكن بالنهار ويبتغي فضل الله بالليل فالشاذ النادر لا يعتد به(١).

و" **من** " **فى** " **ومن رحمته** " هنا للسبب، أي: وبسبب رحمته إياكم، جعل لكم الليل والنهار، ثم علل جعل كل واحد منهما، فبدأ بعلة الأول، وهو الليل، وهو:" لتسكنوا فيه"، ثم بعلة الثاني وهو: " ولتبتغوا من فضله "، وهذا النوع من علم البديع يسمى التفسير، وهو أن تذكر أشياء ثم تفسرها بما يناسبها(٢).

ولما ذكر هذه النعمة التي أسبغها من هذه الرحمة، وذكر علة جعله لها على الصفة المذكورة، ذكر ما يستوجب الشكر على تلك النعمة فقال: " **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** " أي: ولتستعدوا لشكر رب هذه النعمة على إنعامه عليكم ، وعلى ما

١) ينظر المحرر الوجيز (٤ / ٢٩٧).
٢) ينظر الكشاف للزمخشرى (٣ / ٤٢٩) ، البحر المحيط (٨ / ٣٢١).

حباكم بـه مـن فضل، وتخلـصوا لـه الحمد ؛ لأنـه لـم يـشركه فـي إنعامـه عليكم شريك، ومن ثم ينبغي أن لا يكون له شريك يُحمد(١).

فإن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مر الزمان، والمرء في حاجة إليهما، إذ لا غنى له عن الكدح في الحياة لتحصيل قوته، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضي لولا ضوء النهار، كما لا يكمل له السعي على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل، ولا يقدر على شيء من ذلك إلا الله الواحد القهار.

" وإن من يذهب إلى البلاد الشمالية الواقعة جهة القطب الشمالي مثلا ويرى انعدام الحياة فيها ؛ لأن النهار قد يمكث ستة أشهر، والليل كذلك أو قريبا منه يدرك السر في اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما، وما في ذلك من النعم التي لا تحصى وفى ذلك يقول المولى عز وجل: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً " (٢). **ولذلك يقول الإمام البقاعى فى التعقيب بالشكر إثر ذكر هاتين النعمتين:** " **ولعلكم تشكرون**" أي: وليكون حالكم حال من يرجى منه الشكر بما يتجدد لكم بتقبلهما من النعم المتوالية المذكورة بالمنعم، وبما دبر لكم رفقاً بكم فيما كفلكم به في دار الأسباب من أمر المعاش والمعاد من الراحة بالسكون إثر ما أفادكم من الأرباح والمنح بالانتشار والتقلب(٣) **كما يقول الإمام الطبرى** أى:أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله بكم وحجة منه عليكم فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك... فعل ذلك بكم لتفردوه بالشكر وتخلصوا له الحمد لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك؛ فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه "(٤) ، **ففي هذه الآية تنبيه إلى أن العبد** ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمرا، ولا يزال.

---

١) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٢١ / ٢٦٣).
٢) سورة الفرقان آية ٦٢ ، وينظر التفسير الواضح لمحمد محمود حجازى (٢ / ٨٤٥) نشر / دار الجيل الجديد – بيروت ، ط/ العاشرة - ١٤١٣ هـ.
٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٤ / ٣٤٥).
٤) ينظر جامع البيان (١٩ / ٦١٣).

وعمي قلبه عن الثناء على الله بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر(١).

المطلب الثانى
نعمة خلق الأرض

أيضا من آيات الله العظيمة ، وبراهينه القويمة الدالة على كمال الرب جلّ وعلا والتى تستوجب الشكر عليها هذه الأرض التي نمشي عليها ونسير في فجاجها ففيها من البراهين الدالة على كمال الخالق وعظمة الموجد سبحانه وتعالى يقول الله تعالى:" **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِين** "(٢) ، فمن أجلّ النعم تمكين الإنسان من الاستقرار في الأرض والتصرف بما فيها من خيرات، والانتفاع بمنافعها الكثيرة، وقد أثبتت رحلات الطيران والفضاء، وصعود الإنسان إلى القمر وبعض الكواكب الأخرى في العصر العلمي الحديث مدى تعلق الإنسان بالأرض وحبّه لها وحنينه إليها عند بعده عنها ، **ونعمة عظيمة كهذه ما أجمل أن نتوجه بالشكر لواهبها ومسخرها ، ومن الآيات القرآنية التى أشادت بهذه النعمة قوله تعالى:**

" **وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** " **سورة يس آية ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥.**

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بين سبحانه فى الآية السابقة أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل- أردف ذلك ما يدل على أن البعث ممكن وليس بمستحيل، وآية ذلك أن الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج.

---

١) ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ ص ٦٢٣ تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، نشر / مؤسسة الرسالة ط / أولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م بتصرف.

٢) سورة الذاريات آية ٢٠.

معانى المفردات والتراكيب:

يخبر المولى – عز وجل– فى هذه الآيات عن العلامات الدالة على وجوده وقدرته على البعث وإحياء الموتى بإحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، والإحياء فى الحقيقة: إعطاء الحياة ، وهى صفة تقتضى الحس والحركة ، **والمعنى:** هيجنا القوى النامية فيها وأحدثنا نضارتها بأنواع النباتات فى وقت الربيع بانزال الماء(١) ، **وإنما نكر– سبحانه– لفظ " آيَةٌ "** للإشعار بأنها آية عظيمة، كان ينبغي لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها(٢).

ولما كان إخراج الأقوات نعمة أخرى قال: " وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ".

والمعنى: ومن الأدلة على قدرتنا على البعث: إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، بإنزالنا الماء عليها، فتهتز، وتربو، وتنبت نباتًا مختلفًا ألوانه وأشكاله، وتخرج حبًا هو قوت لكم ولأنعامكم، وبه قوام حياتكم(٣).

ثم بين– سبحانه– بعض النعم الأخرى التي تحملها الأرض لهم فقال: " وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ " ، والجنة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض(٤)، وإنما خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه ؛ لأن ألذ المطعوم الحلاوة، وهي فيها أتم ، ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة، ولا كذلك غيرهما ، ولأنهما أعم نفعا فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة(٥) ، وقدم النخل ؛ لأنه نفع كله خشبه وسعفه وليفه وخوصه وعراجينه وثمره طلعاً وبسراً ورطباً وتمراً وفيه زينة دائماً لكونه لا يسقط ورقه(٦).

ولما كانت الجنان لا تصلح إلا بالماء قال تعالى: " وفجرنا " أى شققنا فى الأرض كثيرا من الآبار والعيون التي تسقى بها تلك الزروع والثمار، والتعريف

---

١) ينظر تفسير روح البيان (٧ / ٣٩٢).
٢) ينظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى (١٢ / ٢٩).
٣) ينظر تفسير المراغى (٢٣ / ٧).
٤)) ينظر المفردات ص ٢٠٤.
٥) ينظر مفاتيح الغيب (٢٦ / ٢٧٣).
٦) ينظر السراج المنير (٣ /٣٤٩).

فى قوله:"من العيون " يدل على أن الأرض مركبة على الماء، فكل موضع منها صالح لأن ينفجر منه الماء، ولكن الله يمنعه عن بعض المواضع بخلاف الأشجار ليس منها شيء غالباً على الأرض، ففي ذلك تذكير بالنعمة في حبس الماء عن بعض الأرض لتكون موضعاً للسكن، ولو شاء لفجر الأرض عيوناً كما فعل بقوم نوح عليه السلام فأغرق الأرض كلها (١).

واللام في قوله: " **لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ** " متعلق بقوله: " وَجَعَلْنا "، والضمير في قوله: " **مِنْ ثَمَرِهِ** " يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل والأعناب ، وقيل: إلى الله– تعالى– أى: وجعلنا في الأرض ما جعلنا من جنات ومن نخيل ومن أعناب، ليأكلوا ثمار هذه الأشياء التي جعلناها لهم، وليشكرونا على هذه النعم(٢).

وقوله: " **وما عملته أيديهم**" معطوف على " ثمره"، أي: ليأكلوا من ثمره ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن ما موصولة، وقيل: هي نافية والمعنى: لم يعملوه، بل العامل له هو الله، أي: وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها(٣) ، **قال ابن كثير وقوله:** " **وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ** " أى: وما ذاك كله إلا من رحمتنا بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوته. ولهذا قال: " أَفَلا يَشْكُرُونَ " أى: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى(٤).

ولما عدد سبحانه هذه النعم حض على الشكر فقال: " **أَفَلا يَشْكُرُون** " ؛ أي اشكروا فهو أمر بصيغة الاستفهام أي: ادأبوا دائماً في إيقاع الشكر والدوام على تجديده في كل حين بسبب هذه النعم الكبار(٥) ، وقيل: أفلا يشكرون خالق هذه النعم، على ما تفضل به عليهم، من نعم لا تعد ولا تحصى ، وهو إنكار واستقباح لعدم شكرهم النعم المعدودة(٦) ، والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة

١) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور(١٦ / ١٢٥).
٢) ينظر التفسير الوسيط (١٢ / ٣٣).
٣) ينظر فتح القدير للشوكانى (٤ / ٣٠).
٤) تفسير ابن كثير (٦ / ٥٦١).
٥) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور(١٦ / ١٢٦).
٦) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٢٤ / ٢١).

على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر(١) ، **والمعنى:** أيرون هذه النعم ، أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها بالتوحيد والتقديس والتحميد، فيرجعون عن عبادة غير الله تعالى. وفي ذلك استدلال على وحدانية الله تعالى، وتعداد للنعم. فالأرض مكان لهم لا بد لهم منها، فهي نعمة، ثم إحياؤها بالنبات نعمة ثانية، فإنها تصير أنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة، فإن قوتهم يصير في مكانهم، ثم جعل الجنان فيها نعمة رابعة ؛ لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة(٢) ، **فنعمة تسخير الله الأرض للإنسان يجب أن تقابل بالشكر، ومن تمام شكر الله تعالى على هذه النعمة:** إنما يكون بالمحافظة عليها، وذلك بعدم تلوثها وإتلاف منافعها حتى تظل- كما أرادها الخالق- صالحة للاستغلال والانتفاع، **قال تعالى:** " **ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** "(٣) ، فلا يمكن للإنسان الذي حمل هذه الأمانة الثقيلة والمسؤولية الكبرى أن يقوم برسالة عمارة الأرض واستخراج كنوزه، والمحافظة على هذه البيئة نقية صالحة من هواء ومياه وأشجار ونباتات...إلا إذا واصل شكره العملي على هذه النعمة لعلَّه يضمن المزيد من خيراتها وبركاتها.

المطلب الثالث

نعمة الماء

ومن نعمه عز وجل على عباده إنزال الماء العذب من السماء في صور المطر بقدر الحاجة إليه ويخزن في طبقات الأرض وهي من النعم الدالة على عظمة الله تبارك وتعالى وقدرته ، فهو شريان الحياة و سر من أسرار وجودها و به تستمر الحياة على وجه الأرض.فالماء هو النعمة الكبرى والمنة العظمى، وآية من آياته الجليلة، لا غنى للناس عنها، لأنها مادة حياتهم، وعنصر نمائهم، وسبب بقائهم، منها يشربون ويسقون، ويحرثون ويزرعون، ويرتوون ، ويأكلون ،

١) ينظر تفسير أأبى السعود (٠٧/ ١٦٧).
٢) ينظر تفسير روح البيان (٧ / ٣٩٤).
٣) سورة الأعراف آية ٥٦.

ولما للماء من أهمية بالغة فقد نبه الله تعالى إلى معرفة هذه النعمة وتأدية شكرها ، ومن الآيات التى نوهت بفضلها واستوجبت شكر خالقها عز وجل قوله تعالى:

" أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ " سورة الواقعة: آية ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أوقف الله تعالى عباده على قدرته في الزرع مع وجود أسبابه، وقدمهم بشدة إليه، وكان ربما ألبس نوع لبس ؛ لأن لهم فيه سبباً في الجملة، أتبعه التوقيف على قدرته على التصرف في سبب ذلك الزرع وهو الماء الذي لا سبب لهم في شيء من أمره أصلاً، فقال مسبباً عما أفادهم هذا التنبيه مذكراً بنعمة الشرب الذي يحوج إليه الغذاء فقال: " أفرأيتم الماء الذى تشربون "(١).

معانى المفردات والتراكيب:

ذكر المولى عز وجلَّ نعمته على عباده بالماء العذب الذي منه يشربون، وأنه لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لهم سبيل إليه فقال: " أفرأيتم الماء الذى تشربون " أى: أخبرونى عن الماء الذي تشربونه، أأنتم الذين أنزلتموه من الْمُزْنِ أم نحن الذين أنزلناه؟ ، لا شك أننا نحن الذين أنزلناه، ولا تستطيعون إنكار ذلك، لأن إنكاركم لذلك يعتبر نوعا من المكابرة المكشوفة، والمغالطة المفضوحة.

والمُزْن: مفرده مزنة ، وهو السّحاب المضيء (٢) ، **وإنما اقتصر سبحانه وتعالى على ذكر الشرب** مع كثرة فوائد الماء، ومنافعه ؛ لأنه أعظم فوائده، وأجل منافعه ، فهو أهم المقاصد المنوطة به (٣).

وزيادة في إبراز أهمية الماء من منظور الإسلام، نبّه الحق سبحانه إلى ما قد يصيب الإنسان والحياة من هلاك، إذا لم ينزله، أو لو أنزله "أُجاجا" غير صالح للاستعمال **فقال تعالى مذكراً بنعمة أخرى ، وأنه لو شاء لسلبهم هذه النعمة:**

---

١) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٩ / ٢٦٦).
٢) معجم مقاييس اللغة (٥ / ٣١٨).
٣) ينظر تفسير أبى السعود (٨ / ١٩٨) ، تفسير حدائق الروح والريحان (٢٨ / ٣٩٦).

" **لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ** " ؛ أي: جعلنا ذلك الماء النازل من المزن " أُجَاجًا " ؛ أي: ملحًا زعاقاً، لا يمكن شربه ، ولكنا لم نشأ ذلك رحمة بكم، وفضلا منا عليكم(١).
وقال الراغب: الأجاج: شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيج النار وأَجَّتُهَا، وقد أجّت، وائتجّ النهار(٢).
ولما كان هذا مما لا يساغ لإنكاره سبب عنه على سبيل الإنكار والتحضيض فقال: " **فلولا تشكرون** " أى فهلا تشكرون ربكم على إعطائه ما أعطاكم من الماء العذب لشربكم ومنافعكم، وصلاح معايشكم، وتركه أن يجعله أجاجا لا تنتفعون به(٣). أو فهل لا ولم لا تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى في طاعة الذي أوجده لكم ومكنكم منه ، وجعله ملائماً لطباعكم مشتهى لنفوسكم نافعاً لكم في كل ما ترونه(٤) ، **وإنما آثر الشكر عند ذكر الماء دون الطعام وذلك لوجهين: أحدهما:** أنه لم يذكر في المأكول أكلهم، فلما لم يقل: تأكلون لم يقل: تشكرون وقال في الماء: تشربون فقال: تشكرون ، الثاني: أن في المأكول قال: " ما تحرثون " فأثبت لهم سعيا فلم يقل: تشكرون وقال في الماء: أأنتم أنزلتموه من المزن لا عمل لكم فيه أصلا فهو محض النعمة فقال: فلولا تشكرون(٥) ، **فالواجب على العبد أن يشكر الله على نعمة الماء ، فلا قيمة للحياة دون وجود ماء** ، فحيثما كان الماء كان الناس، وحيثما غاض الماء، ارتحل الناس ؛ فهو رسول الرحمات، وبشائر الخيرات، وروح الأفراد والمجتمعات، وبهجة القلوب ، فهو شريان الحياة النابض، أغلى مفقود، أرخص موجود، فسبحان مَن سوَّاه! سبحان من أجراه ! سبحان من أنزل الماء وروَّى بها الأجساد والأفواه ! **إنها نعمة عظيمة جليلة، ولكن لا يكادُ يشعر بقيمتها ويقدِّرها حقَّ قدرها إلا مَن حُرِمَها ، فالماء نعمة عظيمة تحتاج إلى الشكر وإنَّ من تمام شُكْرَ اللهِ تباركَ وتعالَى على هذه النعمة لا يقتصرُ على الشُّكْرِ باللسانِ**، بلْ يَتعدَّاهُ إلى الشُّكْرِ بِحُسْنِ التَّصرُّفِ فيهِ وحُسْنِ استِغْلاَلِه،

١) ينظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى (١٤ / ١٧٩).
٢) المفردات ص ٦٤.
٣) ينظر جامع البيان (٢٣ / ١٤٣).
٤) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٩ / ٢٢٨).
٥) ينظر مفاتيح الغيب (٢٩ / ٤٢٢).

والاقتصادِ والتَّرشِيدِ في استِعمالِه، فأَيُّ إسْرافٍ في استِعْمَالِ الماءِ هوَ تصرُّفٌ سيّءٌ وسلوكٌ غيرُ حَميد ، وقد جاءَ النهيُ عنهُ صَرِيحاً في القُرآنِ المجيدِ، يقولُ اللهُ تعالى: " **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** "(١) ، وإذا كانَ الإسرافُ في استعمالِ الماءِ لِلشُّربِ مَنْهيّاً عنهُ وممنوعاً مِنْهُ فإنَّ استعمالَه بإسْرافٍ في مجالاتٍ أُخْرَى أَكْثَرُ مَنْعاً وأشدُّ خَطَرا ً. فالماء من أكبر النعم التي خلقها الله ومن حق هذه النعمة تقديرها حق قدرها ومقابلتها بالشكر حتى يحفظها الله سبحانه من الزوال..

المطلب الرابع

نعمة تسخير البحر بأنواع النعم

لا ريب أن من أجمل نعمه تعالى على عباده نعمة تسخيره البحر ، وقد جعله المولى تعالى زاخراً بأنواع عديدة من النعم ، **فمن هذه النعم: نعمة استخراج اللحم الطرى** ، وهذه نعمة عظيمة من الله ؛ حيث جعل البحر مستودعًا لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئًا أساسيًّا في حياة معظم الشعوب، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالًا وجهدًا في تربيتها، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر الناس حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء وبها يتجرون ويتكسبون، ومن رحمة الله إباحتها حية وميتة في الحِل والإحرام ، **ومن النعم التى يزخر بها البحر أيضاً: نعمة تسيير الفلك فيه:** فتسيير الفلك في البحر نعمة كبرى فيها منافع عظيمة للعباد وفقدانها يقلل سبل الحياة ، ويحصل لهم ضيق في أمورهم التجارية، ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيره البحر المتلاطم الأمواج وتذليله لعباده ، لركوبه وقضاء مصالحهم بحمله السفن التي تمخره ؛ لأنها تشق الرياح والماء بصدرها المسنم الذي أرشد الله عباده إلى صنعه وهداهم لذلك ، **ومن النعم أيضاً: نعمة استخراج الحلي** التي يخلقها الله في البحر من اللآلئ والجواهر النفيسة، وكيف سهل الله لعباده استخراجها من أعماق البحار ليتحلَوْا بها ، ويتجروا بها كذلك تكسبًا للمعاش. **فهذه النعم جميعًا وغيرها في البحر توجب على الناس أن يفكروا فيها** وكيف سخر المولى عز وجل لهم هذا البحر

١) سورة الأعراف آية ٣١.

مستودعًا لهذه النعم الكثيرة، وهيأ لهم سبل استخراجها رغم مخاطره الكثيرة وكييف استوجبت هذه النعم شكر الله تبارك وتعالى ، **ولقد جاء الحديث في القرآن الكريم في آيات عديدة عن هذه الآية العظيمة الدالة على كمال الخالق وعظمة المنعم جلّ وعلا، والتى جاءت في سياق الامتنان والتفضل والإنعام والإكرام من الله جلّ وعلا مما استوجبت شكره تعالى عليها ، ومن هذه الآيات:**

١ . قوله تعالى:

" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" سورة النحل آية ١٤

مناسبة الآية لما قبلها:

لما احتج المولى تبارك وتعالى على إثبات الإله في المرتبة الأولى بأجرام السموات، وفي المرتبة الثانية ببدن الإنسان ونفسه، وفي المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات، وفي المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ، ذكر في المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء (١).

معانى المفردات والتراكيب:

فى هذه الآية شروع في تعدادِ النعمِ المتعلقة بالبحر إثرَ تفصيل النعمِ المتعلقة بالبر حيواناً ونباتاً **فقال تعالى:** " **وهو الذى سخر البحر** " **ومعنى تسخيره:** كونه يتمكن الناس من الانتفاع به للركوب في المصالح، وللغوص في استخراج ما فيه، وللاصطياد لما فيه ، **والضمير** " **هُوَ** " يعود إلى الله تعالى، وذكر الموصول لبيان سلطان الله تعالى، وللإشارة إلى أنه سبحانه هو الذي ذلل البحر لمنافعهم، وتمكنهم مما فيه، وليس صيدهم هو الذي مكنهم، بل تسخير الله البحر لهم كان نعمة لهم وتمكينا من نفعهم(٢).

---

١) ينظر مفاتيح الغيب (٢٠ / ١٨٧).

٢) ينظر زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد المعروف بأبى زهرة المتوفى سنة ١٣٩٤ هـ (٨ / ٤١٤٣) ، ط / دار الفكر العربى..

فمنافع البحار كثيرة وقد ذكر الله تعالى منها في هذه الآية ثلاثة أنواع:
المنفعة الأولى: حيث ذكر السبب في تسخير البحر فقال: " لتأكلوا منه لحما طريا " وبدأ أولا من منافعه بالأكل ، لأنه الأهم إذ عليه مدار حياة الإنسان،
والمراد باللحم الطرى: السمك ، وقيل السمك والطير ، واختار كثير الأول.
وإنما عبر عن السمك باللحم مع كونه حيواناً: للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ، **ووصفه بالطراوة:** للإشارة إلى لطافته ، وسهولة مضغه لضعف أليافه، وللتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع إليه الفساد فيبادر إلى أكله عذباً ، ففي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى ، وذلك أن السمك لو كان كله مالحاً لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري ، لأنه لما خرج من البحر الملح اللحم الطري في غاية العذوبة علم أنه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك أنّ الله تعالى قادر على إخراج الضدّ من الضدّ (١) ،
المنفعة الثانية: من منافع البحر قوله تعالى: " وتستخرجوا منه حلية تلبسونها "
والمراد بالحلية: اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى فى آية أخرى: " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" (٢) ، والمراد بلبسهم: لبس نسائهم ، لأنهن من جملتهم، ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم(٣).
ولعل الشوكانى لم يرتض ذلك ، حيث قال: فإن ظاهر قوله: " تلبسونها " أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي: يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله: " **تلبسونها** " بقوله تلبسه نساؤهم، لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسها لأجلهم، إذ ليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبها بهن، وقد ورد الشرع بمنعه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان(٤)

---

١) ينظر السراج المنير لشمس الدين الخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ (٢ / ٢٣١) ط /مطبعة بولاق " الأميرية " القاهرة ١٢٨٥ هـ ، روح المعانى (١١ /٣٥٢).
٢) سورة الرحمن آية ٢٢.
٣) ينظر مفاتيح الغيب (٢٠ / ١٨٨).
٤) ينظر فتح القدير (٣ / ١٨٤).

ولما ذكر سبحانه وتعالى نعمة الأكل من البحر والاستخراج للحلية، ذكر تعالى نعمة تصرف الفلك مواخر فيه وهذه هى المنفعة الثالثة فقال: " وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله "، والمواخر: التى تراها مقبلة ومدبرة بريح واحدة ، يقال: مخرت السفينة تمخر مخوراً إذا جرت تشق الماء مع الصوت(١)
والمعنى: وترى السفن جوارى فيه، تشقّه بحيزومها ومقّدمها ، مقبلة مدبرة من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك(٢).
ولما علل التسخير بمنفعة البحر نفسه من الأكل وما تبعه، عطف على ذلك النفع به، فقال تعالى: " ولتبتغوا من فضله " ، وهو معطوف على قوله: " تستخرجوا " وما بينهما اعتراض، أو معطوف على علةٍ محذوفةٍ ، أي: لتنتفعوا بذلك، ولتطلبوا من سعة رزقه بركوبه للتجارة، فإن تجارته أربح (٣) ،
ثم رتب على ذلك السبب وهو ابتغاء الفضل السبب الأساس والهدف المنشود من من وراء تلك النعمة فقال: " ولعلكم تشكرون " أى: لكى تشكروه عز وجل على ما منحكم من هذه النعم التي أنتم عاجزون عنها لولا تسخيرها عز وجل لكم(٤) ، وقيل: لكى تشكروا الله الذي يسر لكم هذه الأشياء وهيأها وتثنون على الله الذي منَّ بها عليكم، وأسبغ عليكم من نعمه الظاهرة والباطنة ، فلله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى ما يتمنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه ، ولكى تعرفوا حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد(٥) ، **ولعل السبب فى تذييل الآية بقوله: " لعلكم تشكرون "** لأنه جاء مناسب تمام المناسبة لما اشتملت عليه الآية الكريمة من وجهين: **أحدهما:** أن المقام فى معرض ذكر النعمة ، ولما كانت النعمة توجب الشكر ناسب أن تختتم

١) ينظر لسان العرب (٦ / ٤١٥٢).
٢) ينظر تفسير المراغى المتوفى سنة ١٣٧١ هـ (١٤ / ٦٢) ط / مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، ط / أولى ١٣٦٥ هـ.
٣) ينظر تفسير أبى السعود (٥ / ١٠٣) ، حدائق الروح والريحان (١٥ / ١٦٠).
٤) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١١ / ١٢٦).
٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١ / ٤٧٣).

هذه الآية بقوله: " ولعلكم تشكرون " ، **الثانى:** أن ما تضمنته الآية أقوى في باب الإنعام، من حيث إنه جعل المهالك سببًا للانتفاع وتحصيل المعاش ، فكأن المعنى: أي ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم، إذ جعل ركوب البحر مع كونه مظنة للهلاك سببًا للانتفاع وحصول المعاش، مع عدم الحاجة إلى الحل والترحال والاستراحة والسكون فكان ذلك أحرى أن يعقب بالشكر.

ولذلك يقول العلامة أبو السعود فى تعقيب تلك النعمة بالشكر: ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث إن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر، بل من غير حركة أصلا مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له(١).

٢ . قوله تعالى:

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة الروم آية٤٦.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن وصف المولى تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ظاهرة الفساد في العالم بسبب الشرك والمعاصي، أقام عز وجل الأدلة القاطعة على وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح وبالأمطار، فتحيا بها الأرض بعد موتها وجرى الفلك حاملة لما هم فى حاجة إليه، مما فيه غذاؤهم، وعليه مدار حياتهم(٢).

معانى المفردات والتراكيب:

كذلك من الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله- تعالى- ونفاذ قدرته، أنه- سبحانه- يرسل بمشيئته وإرادته الرياح، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا، فيها الخير الكثير للناس ، **وإنما عبر بالفعل " يرسل** " ليكون على سبيل التجدد

١) ينظر تفسير أبى السعود (٥ / ١٠٣) ، فتح القدير (٣ / ١٨٤).
٢) ينظر تفسير المراغى (٢١ / ٥٨).

والاستمرار، **كما أن في ووصفها بالجمع " الرياح "**: إشارة إلى باهر القدرة، فإن تحويل الريح الواحدة من جهة إلى أخرى أمر عظيم لا قدرة لغيره عليه في الفضاء الواسع، وكذا إسكانه، فكيف إذا كانت رياح متعاكسة، ففي إثارتها كذلك ثم إسكانها من باهر القدرة ما لا يعلمه إلا أولو البصائر(١) ، **والمبشرات:** المؤذنة بالخير وهو المطر. **وأصل البشارة:** الخبر السار. شبهت الرياح برسل موجهة بأخبار المسرة وذلك أن الرياح تسوق سحاب المطر إلى حيث يمطر(٢).

ثم شرع فى بيان الفوائد التي تعود على الناس من إرسال الرياح التي تعقبها الأمطار فقال:" وليذيقكم من رحمته " أى: فينزل عليكم من رحمته مطرا تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة (٣) ، **ومن خواص الرياح أيضا عند هبوبها: تسيير السفن في البحر فقال: "ولتجرى الفلك بأمره** "، فبالسفن ينتقل الركاب والتجار، وتحمل البضائع من قطر إلى آخر، فتكون وسيلة الرزق بالتجارة ، **وإنما قيد الفلك بأمره:**لأنه بمثابة تعليم للمؤمنين وتحقيق للمنة، أي: لولا تقدير الله ذلك وجعله أسباب حصوله لما جرت الفلك(٤) ، **وقيل:** لأن الريح قد تهب ولا تكون موافقة فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال لحبسها، وربما عصفت وأغرقتها(٥).

وبعد أن ذكر هذه الغايات الجليلة ختم الآية بما يستوجب الشكر على تلك النعمة فقال: " ولعلكم تشكرون " أى: سخر لكم الأسباب وسير لكم الأمور لكى تشكروا الله عز وجل على ما أنعم عليكم من نعمه ودفع عنكم من نقمه ، فهذا هو المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى ليزيدكم الله منها ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهذه حال من بدَّل نعمة الله كفرا ونعمته

١) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٥ / ١١٣).
٢) ينظر التحرير والتنوير (٢١ / ١١٨).
٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٤٣
٤) ينظر التحرير والتنوير (٢١ / ١١٩).
٥) ينظر السراج المنير (٣ / ١٧٤).

محنة وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره(١) ، فتعقيب الآية بالشكر للإشارة إلى أن نعمة الله تعالى يجب أن تقابل بالشكر.

٣ . قوله تعالى:

" وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة فاطر آية ١٢.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر المولى تبارك وتعالى الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها أردف هذا بذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع،

حيث ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته فقال: "وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ"

معانى المفردات والتراكيب:

نبّه الله تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، فقال: " وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج " ، **وقد تعددت مشارب المفسرين حول المراد بهذه الآية: فذهب أكثر المفسرين** إلى: أن هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، حيث شبه الله تعالى المؤمن بالبحر والعذب من حيث إن المؤمن باق على الفطرة الأصلية والوصف المقصود من حقيقة الإنسان ، كما أن البحر العذب باقٍ على الحالة الأصلية والوصف المقصود من حقيقة الماء ، وأن الكافر مغير على الفطرة الأصلية والكمال المقصود منه ، كما أن البحر الملح كذلك ، فذكر البحرين ، وأريد المؤمن والكافر ، ونفى الاستواء لتفاوت ما فيهما من الوصفين كتفاوت ما بين البحرين(٢) ، **وقيل:** إن هذه الآية لبيان ما يستدل به كل عاقل على أنه مما لا

١) ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٤٤.
٢) ينظر حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى (٧ / ١٠٤) ، ط / المكتب الإسلامى ، تفسير النسفى (٣ / ٨١).

مدخل لصنم فيه (١). **واستظهر الرازى:** أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله تعالى وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج(٢) ، **أقول:** أن هذه الآية جاءت للاستدلال على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته وبديع صنعه بخلق الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فالمقصد الأول من سياقها هو الاستدلال على عجيب قدرته ، وحكمة الخالق جل شأنه كما هو الشأن فى الآيات السابقة واللاحقة التى تتحدث عن إثبات الألوهية والربوبية لله تعالى من خلال السورة الكريمة ، والله أعلم.

والمراد بالفرات: أعذب العذوبة ، والأجاج: أملح الملوحة (٣) ، **وإنما سُمي العذب بحرًا** ؛ لكونه مع الملح، كما يقال للشمس والقمر: قمران بالتغليب ، **والسائغ:** هو الذى يسهل انحداره لعذوبته ، تقول: ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغاً ، سهل مدخله فى الحلق ، وساغ الطعام سوغاً نزل فى الحلق(٤) ، وعلى هذا فمعنى قوله " هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج " أى: هذا ماء حلو شديد الحلاوة يكسر وهج العطش ويسهل انحداره فى الحلق لعذوبته ، وهذا ماء شديد الملوحة يحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته(٥).

ولما أراد المولى عز وجل أن ينبهنا بهذه الآية إلى أنه – تعالى – مع قدرته على خلق الأشياء المتباينة طبعًا فهو قادر علي أن يجعلها مشتركة في بعض المنافع، وأن يجعل بعضها منفردًا ببعض آخر منها قال: " ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها " أى من كل واحد منهما من البحر العذب والبحر المالح ، **والمراد باللحم الطرى:** السمك ، **وقيل:** السمك والطير ، واختار كثير من المفسرين الأول ، **وإنما عبر عن السمك باللحم مع كونه حيواناً:** للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ، **ووصفه بالطراوة:** للإشارة إلى

١) ينظر البحر المحيط (٩ / ٢٠).
٢) ينظر مفاتيح الغيب (٢٦ / ٢٢٨).
٣) ينظر مجاز القرآن لأبى عبيدة (٢ /١٥٣).
٤) ينظر لسان العرب (٨ / ٤٣٥) ، المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١ /٢٩٥) نشر / المكتبة العلمية ـ بيروت مادة س و غ.
٥) ينظر صفوة التفاسير للصابونى (٢ / ٥٦٩).ط / دار القرآن الكريم ـ بيروت ، ط / الرابعة ١٩٨١ م.

لطافته وسهولة مضغه لضعف أليافه ، وللتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع إليه الفساد كما ينبئ عنه جعل كل من البحرين مبدأ أكله(١). **والظاهر أن معنى " وتستخرجون حلية تلبسونها "** أى منهما ، **وقيل:** إنما تستخرج الحلية من المالح ، **وقال الزجاج:** وإنما تستخرج الحلية مِنَ المِلْح دُونَ العذْبِ، إلا أنهما لما كانا مُخْتَلِطَيْنِ العَذْبُ والمِلْحُ، جاز أن يقال تستخرجون الحلية وهي اللؤلؤ والمَرْجَانُ وما أشبه ذلك مِنْهُمَا كما قال: " يخرج منهما اللؤلؤ والمُرجَان " (٢).

ولما كان استقرار شيء في البحر دون غرق أمراً غريباً لكنه صار لشدة ألفه لا يقوم بأنه من أكبر الآيات دلالة على القادر المختار إلا أهل البصائر خص بالخطاب فقال: " وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله "، وإنما أفرد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق: لأن الخطاب لكل أحد تأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (٣) ، **والضمير فى " فيه "** يعود على كل من البحرين(٤) ، وذهب النحاس إلى أنه يعود على ماء الملح خاصة ، ولولا ذلك لقال: فيهما مواخر(٥) ، **والمواخر:** التى تراها مقبلة ومدبرة بريح واحدة ، يقال: مخرت السفينة تمخر مخوراً إذا جرت تشق الماء مع الصوت(٦).

واستشكل هنا قوله: " وترى الفلك فيه مواخر " مع قوله فى سورة النحل " وترى الفلك مواخر فيه " والجواب: أنه علق " فيه " هنا بـ"ترى "، وثمت بـ"مواخر " ، وثمت جواب آخر وهو: أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذاك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها "(٧) فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء ، بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطرادا أو تتمة للتمثيل(٨).

---

١) ينظر روح المعانى (١١ /٣٥٢)
٢) سورة الرحمن آية ٢٢ ، وينظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج (٤ / ٢٦٦).
٣) ينظر تفسير أبى السعود (٧ / ١٤٧).
٤) ينظر فتح القدير (٤ /٣٩٣).
٥) ينظر إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ (٣ / ٢٤٩) ط/ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / أولى ١٤٢٠ هـ.
٦) ينظر اللسان (٦ / ٤١٥٢).
٧) سورة النحل آية ١٨.
٨) ينظر روح المعانى (١١ / ٣٥٣).

ثم بين السبب فى ذلك فقال:" لتبتغوا من فضله " أى: لتطلبوا بركوبكم في هذه البحار في الفلك من معايشكم، ولتتصرفوا فيها في تجاراتكم بالبيع والشراء. ولتطلبوا من فضل الله ورزقه متنقلين فيها من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر. واللام متعلقة بـ" مواخر"، وجوز تعلقها بمحذوف دل عليه الأفعال المذكورة كسخر البحرين وهيأهما ، أو فعل ذلك لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

ثم ختم الآية بما يستوجب الشكر على تلك النعمة فقال: " ولعلكم تشكرون " أى: ولتشكروا الله سبحانه على ما أنعم عليكم به من ذلك الفضل وتشكروه على تسخيره ذلك لكم، وما رزقكم منه من طيبات الرزق وفاخر الحلي، أو كي تعرفوا نعم الله فتقوموا بحقها ، ولا سيما أنه جعل المهالك سببًا لوجود المنافع وحصول المعايش([1]) ، **ولعل تعقيب الآية بقوله: " لعلكم تشكرون " مناسب تمام المناسبة لما اشتملت عليه الآية الكريمة** ، فإن تسخيره تعالى هذا البحر العظيم لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يتصرفون فيه كيف شاءوا، ويذهبون إلى حيث يريدون دون عائق ولا مانع، بل بقدرته تعالى قد سخر لهم جميع ما في السموات وما فى الأرض من فضله ورحمته. وأنعم عليكم بنعم كثيرة، كل تلك الأسباب مستدعية لشكره وحده تبارك تعالى على تلك الآلاء والنعم ، ولا شك أن هذه الآية من أعظم الدلائل على قدرته سبحانه وتعالى، ومن أفضل البينات على كمال نعمته ، **ولذلك يقول الألوسى فى وجوب مقابلة تلك النعمة بالشكر قيل: " لعل ": هنا للترجي** ، ولما كان محالا عليه تعالى الترجى كان المراد اقتضاء ما ذكر من النعم للشكر حتى كأن كل أحد يترجاه من المنعم عليه بها ، فهو تمثيل يؤول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطبين" (٢).

٤ . قوله تعالى:

" اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة الجاثية آية ١٢.

١) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٢٣ / ٢٦٦).
٢) ينظر روح المعانى (١١ / ٣٥٣).

مناسبة الآية لما قبلها:

هـذه الآيـة اسـتئناف ابتـدائي للانتقـال مـن التـذكير بمـا خلـق الله مـن العـوالم وتصاريف أحوالها من حيث إنها دلالات على الوحدانية، إلى التذكير بما سخر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع للناس تقتضي أن يشكروا مقدرها فجحدوا بها إذ توجهوا بالعبادة إلى غير المنعم عليهم (١).

معانى المفردات والتراكيب:

يخبر تعالى بفضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره فقال: " الله الذى سخر لكم البحر " بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ، فالله تعالى وحده هو الذي بقدرته ورحمته سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ بأن جعلكم متمكنين من الانتفاع بخيراته، وبأن جعله على هذه الصفة التي تستطيعون منها استخراج ما فيه من خيرات.

ثم بين الأسباب التي من أجلها سخر الله تعالى البحر على هذه الصفة فقال:

" **لتجرى الفلك فيه بأمره** " أى: جعل لكم البحر على هذه الصفة، لكي تتمكن السفن من الجري فيه بأمره تعالى وقدرته، ولتطلبوا ما فيه من خيرات، تارة عن طريق استخراج ما فيه من كنوز، وتارة عن طريق التجارة فيها.. وكل ذلك بتيسير الله تعالى وفضله ورحمته بكم(٢). **وقوله:** " **لتجري الفلك فيه** " **بدل اشتمال من** " **لكم** " ، لأن في قوله: " لكم " إجمالا أريد تفصيله. وعطف عليه " ولتبتغوا من فضله " باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال، فحصل من مجموع ذلك أن تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات حتى التنزه وزيارة الأهل(٣).

ثم ختم الآية بما يستوجب الشكر على تلك النعمة فقال:" **ولعلكم تشكرون** ":

أى لكى تشكروا الله تعالى على نعمه ، وتواظبون على أداء حقوق كرمه ، فتعبدوه وحده حق العبادة، وتصرفوا ما أنعم به عليكم إلى ما خلقتم له ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرا جزيلا.

---

١) ينظر التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٣٦)
٢) ينظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى (١٣ / ١٥٠).
٣) ينظر التحرير والتنوير (٢٥ /٣٣٦).

فتعقيب الآيـة بقولـه: " **ولعلكم تـشكرون** " جـاء مناسباً لمـا اشـتملت عليـه الآيـة الكريمة تمام المناسبة ، فإن جريان الفلك على وجه البحر لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء: **أحدها:** الرياح التي تجري على وفق المراد ، **وثانيها:** خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك ، **وثالثها:** خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه ، وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى([1]) ، فكأنـه تعـالى يقـول: أعطـاكم مـا أعطـاكم مـن الـنعم، وجعـل البحـر علـى صـفة تتمكنون معها من الجري فيه وأنتم في سفنكم، ومن استخراج ما فيه من خيرات.. كل ذلك **أسباب مستدعية لشكره عز وجل ، فلعلكم بعد ذلك تشكرون الله تعالى على هذه النعم الجليلة ، ومن تمام شكره تعالى على تلك النعمة معرفة قدرها ، والمحافظة** عليها وعدم الإفساد فيها ، واستعمالها فيما خلقت من أجله والله أعلم.

المطلب الخامس

نعمة تسخير الأنعام للإنسان

كرم الله تعالى الإنسان بتسخير الكون لـه، وتسخير ما فيه لمنفعته وتمكينه من دوره الذي خلقه من أجله، حيث سخر له ما هو أعظم منه جسماً كالأنعام، وهذه النعمة فى ذاتها تتضمن نعماً منها: **نعمة تذليلها،** لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلـة لا تمتنـع علـى صـاحبها عنـد الحاجـة إليهـا فـي تسييرها وتوجيههـا للرعـي أو للطـرق أو للحمـل أو للوقـوف، وهـذا التـذليل ضـروري لتمـام الانتفـاع بالأنعام، ولولا تذليلها ما كانت زينـة وجمالًا لأنها تكون نـافرة مستعصية ، **ومـن النعمة أيضاً فى الأنعام: نعمة الركوب** ، فإن نعمة ركوب الأنعام والحمل عليها تلفت النظـر وتوجـب الـشكر؛ لأنهـا تـوفر كثيـرًا مـن الجهـد والتعـب، فيـستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة ؛ لأن هذه الأنعام تحملـه وتحمل متاعـه وطعامـه وشرابه وبـدون هذه الأنعام فإن الإنسان عاجز عن حمل الأثقال لمسافة قصيرة، وتظهر نعمة الحمل والركوب بشكل

١) ينظر مفاتيح الغيب (٢٧ / ٦٧٣).

خاص في الخيل والبغال والحمير، ولذلك أفردت معًا في آية خاصة بها فقال تعالى: " وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا "(١)، فامتن الله على عباده بهذا النوع بالذات لتخصصه بهذه النعمة ، **أيضاً من النعمة فى هذا المخلوق: نعمة الجلد وما فيه من صوف وشعر ووبر**: فهذه نعمة جليلة أن نتخذ من جلود الأنعام بيوتًا خفيفة الحمل في الأسفار وتضرب بسهولة لتقينا الحر والقر(٢)، وكذلك أن نتخذ من صوف الغنم وشعر المعز ووبر الإبل الأثاث والمتاع والثياب والبسط والحبال وغيرها من الأمتعة ، كآنية الماء واللبن المتخذة من الجلود وكثير من الصناعات لا تقوم إلا على جلود الأنعام وما فيها ، **ومن النعمة أيضاً فى الأنعام** " **اللبن** " ، فاللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية ؛ لأن مصالح العباد كلها قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصًا بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة، فإذا نضج ذهب أقسامًا للدم والعظم واللحم ، وقسم يصير لبنًا والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به فيخرج اللبن خالصًا سائغًا للشاربين لا يغص به أحد. **وخاتمة النعم في الأنعام:** " **نعمة اللحم** " فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم فهي كذلك يؤكل لحمها وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة ، **كل هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله والاعتراف بوحدانيته وإفراده بالعبادة وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعم الجليلة ، لذلك نجد في الآيات دعوة لشكر الله تعالى عليها ، ومن الآيات التى أشادت بشكر الله تعالى على تلك النعمة قوله تعالى: ١ . قوله تعالى:**

" أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ " سورة يس آية ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣.

---

١) سورة النحل آية ٨.

٢) القر:قر اليوم يقر قرا بضم القاف فيهما أي برد، ويوم (قار) و (قر) بالفتح أي بارد ، و ليلة قارة و قرة بالفتح أي باردة ، ورجل (قرير) العين. و (قرت) عينه تقر بكسر القاف وفتحها ضد سخنت.ينظر مختار الصحاح ص٢٥٠..

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما أخبر سبحانه فى الآيات السابقة بإعماء أفكار الكفار، وهدد بطمس أبصارهم، ومسخهم على مقاعدهم وقرارهم، وأعلم بأن كتابه خاتم بإنذارهم، ذكرهم بقدرته وقررهم تثبيتاً لذلك ببدائع صنعته، فقال عاطفاً على ما تقديره: ألم يروا ما قدمناه وأفهمته آية " ومن نعمره " وما بعدها من بدائع صنعنا تلويحاً وتصريحاً الدال على علمنا الشامل وقدرتنا التامة، فمهما صوبنا كلامنا إليه حق القول عليه ولم يمنعه مانع، ولا يتصور له دافع(١).

معانى المفردات والتراكيب:

يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها فقال: " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا" والمعنى: أولم يشاهد هؤلاء المشركون بالله الأصنام والأوثان أنا خلقنا لهم بقدرتنا وإرادتنا بلا معين ولا ظهير أنعامًا من الإبل والبقر والغنم، يصرفونها كما شاؤوا بالقهر والغلبة. فهي ذليلة منقادة لهم. فالجارية الصغيرة إن شاءت أناخت البازل الكبير، وإن شاءت ساقته وصرفته وإنما ذكر الأنعام ؛لأنها كانت جل أموالهم (٢) ، **وقوله تعالى: " فهم لها مالكون** " إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها والمعنى: ملكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع بها (٣) ولذلك آثر التعبير بالجملة الإسميةِ على ذلك للدِّلالةِ على استقرارِ مالكِّيتِهم لها واستمرارِها(٤).

ثم بدأ يذكر منافعها فقال:" وَذَلَّلْناها لهم " أى: وصيرنا تلك الأنعام ذليلة منقادة لهؤلاء المشركين وغيرهم بحيث لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها، من الركوب والسوق إلى ما شاؤوا، والذبح مع كمال قوتها وقدرتها. فهو نعمة من

١) ينظر نظم االدرر فى تناسب الآيات والسور (١٦ / ١٧٣).
٢) ينظر تفسير المراغى (٢٣ / ٣٣).
٣) ينظر مفاتيح الغيب (٢٦ / ٣٠٦) البحر المحيط (٩ / ٨٢).
٤) ينظر تفسير أبى السعود (٧ / ١٧٨).

النعم الظاهرة (١)، ولهذا ألزم الله الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله:" سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ "(٢).

وفى قوله تعالى:" فمنها ركوبهم ومنها يأكلون" بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود(٣).

فالركوب نعمة تستوجب الشكر ؛ لأنها توفر للإنسان كثيراً من الجهد والتعب، وإذا نظرنا إلى الخيل نجد أن لها أثراً كبيراً في الجهاد، ونشر دعوة الإسلام، والدفاع عن الأوطان وعن الحرمات والأعراض وكانت من وسائل نصر المسلمين على أعدائهم(٤)..

ثم بين المولى تبارك وتعالى فوائد أخرى غير الركوب والأكل فقال:" ولهم فيها منافع ومشارب " وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال "منافع" لتعمها أي منافع أخرى غير الركوب والأكل بالأصواف والأوبار والأشعار والجلود والبيع وغير ذلك ، والمشارب كذلك عامة.

ثم حثهم على شكره عز وجل على هذه النعمة وتوحيد صانعها فقال: " أَفَلا يَشْكُرُونَ " أى أيشاهدون هذه النعم التي يتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها بأن يوحدوه ولا يشركوا به فى العبادة ، فقد تولى المنعم إحداث تلك النعم ليكون إحداثها ذريعة إلى أن يشكروها فجعلوها وسيلة إلى الكفران(٥) **وقيل:** " أَفَلا يَشْكُرُونَ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعا خاليا من العبرة والفكرة (٦).

مما سبق يتبين لنا أن هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله والاعتراف بوحدانيته وإفراده بالعبادة وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعمة الجليلة، لذلك نجد في الآيات دعوة لشكر الله وعدم اتباع خطوات الشيطان.

---

١) ينظر روح البيان (٧ / ٤٣٤).
٢) سورة الزخرف آية ١٣ ، ينظر الكشاف (٤ / ٢٨) ، مفاتيح الغيب (٢٦ / ٣٠٦).
٣) ينظر مفاتيح الغيب (٢٦ / ٣٠٦)
٤) ينظر الخيل والفروسية لسلامة محمد أحمد ص ٩٨ بدون طبعة.
٥) ينظر روح البيان (٧ / ٤٣٥).
٦) ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٩٩.

٢ . قول الله تعالى:

" وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة الحج آية ٣٦.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما قدّم الله تعالى فى الآيات السابقة الحث على التقرّب بالأنعام كلها ، وبين أن ذلك من تقوى القلوب، وكانت الإبل أعظمها خلقاً وأجلها في أنفسهم أمراً خصها بالذكر فقال تعالى:" والبدن جعلناها لكم من شعائر الله...." الآية.

معانى المفردات والتراكيب:

امتنَّ الله تعالى على عباده بتسخير البدن لهم وجعلها من شعائره، فتهدى إلى بيته الحرام، بل جعلها أفضل ما يهدى إليه ، وجعلها لهم مطاعة منقادة، فقال: " **والبدن جعلناها لكم** " والبدن جمع بدنة، سميت بذلك لعظم بدنها أو لسمنها وهي الإبل خاصة(١) ، **ومعنى**" **من شعائر الله**" أي: من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى ، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص ، وقيل لأنها تُشْعَر وهي أن تطعن بحديدة في سنامها ليعلم بذلك أنها هدي(٢). والخير فى قوله: " **لكم فيها خير**" المراد به الأجر في الآخرة بنحرها والصدقة بها، وفي الدنيا: اللبن والركوب إذا احتاج إلى ركوبها ففيها منافع دينية ودنيوية(٣).

ثم أمر المولى عز وجل بضرورة ذكر اسمه عليها عند الذبح فقال:

" **فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ** " أي فاذكروا اسم الله على البدن عند نحرها وكونها قائمات صافات الأيدي والأرجل، بأن تقولوا: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك(٤) ، **وانتصب** "**صواف** " على الحال من الضمير المجرور في قوله "عليها". وفائدة هذه الحال ذكر محاسن من مشاهد البدن ، فإن إيقاف الناس

---

١) ينظر المفردات ص ١١٢.
٢) ينظر السراج المنير (٢ /٥٥٣) التفسير الوسيط (٩ / ٣١٢).
٣) ينظر جامع البيان (١٨ /٦٣١).
٤) ينظر التفسير المنير (١٧ / ٢١٨).

بدنهم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة مما يزيد هيئتها جلالا. ومنه قوله تعالى: " إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص "(١). **ومعنى** " **وجبت**" سقطت، أي إلى الأرض، وهو كناية عن زوال الروح التي بها الاستقلال. والقصد من هذا التوقيت المبادرة بالانتفاع بها إسراعا إلى الخير الحاصل من ذلك في الدنيا بإطعام الفقراء وأكل أصحابها منها ، فإنه يستحب أن يكون فطور الحاج يوم النحر من هديه، وكذلك الخير الحاصل من ثواب الآخرة (٢) ، **ثم أباح سبحانه وتعالى أن يأكل الإنسان من هديه وأن يطعم منها الفقراء فقال:**" **فَكُلُوا مِنْها وأطعموا القانع والمعتر** " وفيه أجر وامتثال إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم ، **وقد اختلف المفسرون في المراد بالقانع والمعتر فى الآية ، فقال بعضهم: القانع** الذي يقنع بما أعطي أو بما عنده ولا يسأل، **والمعتر**: الذي يتعرض لك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل. **وقال آخرون:** القانع: الذي يقنع بما عنده ولا يسأل ؛ **والمعتر**: الذي يعتريك فيسألك ، وهو اختيار أبى السعود(٣) ، **وقال آخرون: القانع:** هو السائل، **والمعتر**: هو الذي يعتريك ولا يسأل وبدأ به الزمخشرى(٤). **ورجح الإمام الطبرى القول الثالث حيث قال:** وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: عني بالقانع: السائل؛ لأنه لو كان المعني بالقانع في هذا الموضع، المكتفي بما عنده والمستغني به لقيل: وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل: وأطعموا القانع والمعتر. وفي إتباع ذلك قوله: والمعتر، الدليل الواضح على أن القانع معني به السائل، من قولهم: قنع فلان إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعا ، وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قنعت بكسر النون أقنع قناعة وقنعا وقنعانا. وأما المعتر: فإنه الذي يأتيك معترا بك لتعطيه وتطعمه(٥). **ثم بين- سبحانه- مظاهر فضله عليهم، حيث ذلل هذه الأنعام لهم فقال:** " **كذلك سخرناها لكم** " وهو استئناف للامتنان بما خلق من المخلوقات لنفع الناس. والأمارة الدالة على

١) سورة الصف آية ٤.
٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧ / ٢٦٤).
٣) تفسير أبى السعود (٦ / ١٠٧).
٤) ينظر الكشاف (٣ / ١٥٨).
٥) جامع البيان (١٨ / ٦٤٠ ٩) بتصرف.

إرادته ، ذلك أنه سخرها للناس مع ضعف الإنسان وقوة تلك الأنعام فيأخذ الرجل الواحد العدد منها ويسوقها منقادة ويؤلمونها بالإشعار ثم بالطعن ، ولولا أن الله أودع في طباعها هذا الانقياد لما كانت أعجز من بعض الوحوش التي هي أضعف منها فتنفر من الإنسان ولا تسخر له(١). **والمعنى: كَذَلِكَ أي:** تسخيرًا مثل ذلك التسخير البديع سخرنا البدن وذللناها لمنافعكم مع كمال عظمها، ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم حتى تأخذوها منقادةً، فصارت منقادة لكم إلى مواضع نحرها، فتعقلونها، وتحبسونها صافة قوائمها، ثم تطعنون في لباتها ؛ أي: مناحرها من الصدور، ولولا تسخير الله لم تطق. ولم تكن أعجز من بعض الوحوش، التي هي أصغر منها جرمًا وأقل قوة، وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحصول عليها، والركوب على ظهرها، والحلب لها، ونحو ذلك(٢). **ثم ختم الآية بوجوب الشكر على تلك النعمة العظيمة فقال:** " **لعلكم تشكرون**" أى لكى تشكروا الله على إنعامنا عليكم لتعرفوا أنّ ما ذللها لكم إلا الله تعالى، فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بأن لا تحرّموا منها إلا ما حرّم عليكم ولا تحلوا منها إلا ما أحلّ، وتهدوا منها ما حث على إهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم(٣) ، **لذلك يقول الشيخ الشعراوى فى وجوب تعقيب تلك النعمة بالشكر:** "سخّرناها لكم، ولو في غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملّككم إياها، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذي سيعود عليكم بالنفع في الدنيا وفي الآخرة "(٤).

المطلب السادس

نعمة حصول الرزق للعباد

لا شك أن الرزق هوَ العطاء والهبة وكل ما يستفيد منهُ الإنسان، وهو من الأمور التي تكفّل اللهُ سُبحانهُ وتعالى بها لعباده والمكتوب عندهُ جلّ جلاله ، كما أن

٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧ / ٢٦٦).
٢) نظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨ / ٣٢٤).
٣) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٣ / ٤٩).
٤) تفسير الشيخ الشعراوى ((١٦ / ٩٨٥٢).

المسلم يؤمن إيماناً جازماً بأنَّ الله سُبحانهُ وتعالى قد أوجدهُ على هذهِ الأرض وقد تكفّلَ لهُ برزقه، وهذا أمرٌ قاطع ووعدٌ إلهي لا يتغيّر، فالله سبحانه وتعالى خصّ نفسه بملك أرزاق العباد ، بل إن من أسمائه الحسنى الرزاق ، **ومن الآيات التى بينت أن رزق العباد قد كفله المولى عز وجل لهم:**

١. قول الله تعالى:

" وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " سورة الأعراف آية ١٠.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أمر الله تعالى الخلق باتباع الرسل وحذر من مخالفتهم فبالغ فى تحذيرهم بعذاب الدنيا بقوله: " وكم من قرية أهلكناها " ثم بعذاب الآخرة من وجهين:

أحدهما: السؤال وهو قوله: " فلنسئلن الذين أرسل إليهم " ([1]) ، **الثاني:** بوزن الأعمال وهو قوله" والوزن يومئذ الحق "([2]) رغبهم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية بطريق آخر وهو أنه كثرت نعم الله عليهم وكثرة النعم توجب الطاعة فقال: ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ([3]).

معانى المفردات والتراكيب:

يـذكر الله سبحانه وتعالى عباده بنعمة التمكين فى الأرض التي جعلها لهم كالفراش ممهدة وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لهم للاستفادة من خيراتها ، ولولا تذليل الله لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع والتي منها أن الأموات يدفنون في بطنها، فهي تُكِنُّ الأحياء على ظهرها في المساكن والأموات في القبور، فكأنها كفت أذى الناس أحياء وجيفهم أمواتًا ، **كما يظهر المولى تعالى أيضاً فى هذه الآية امتنانه على عباده بكثرة إنعامه عليهم**، بأن جعل الأرض لهم مكانا وقرارا ، وأقدرهم على التصرف فيها، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب والمطر لإخراج أرزاقهم منها، وجعل فيها رواسي وأنهارا.**ثم يذكرنا عز وجل بنعمة أخرى في الأرض**

---

١) سورة الأعراف آية ٦.
٢) سورة الأعراف آية ٨.
٣) بنحو ذلك المعنى ذكره الرازى فى مفاتيح الغيب (١٤ / ٢٠٤) ، و البقاعى فى نظم الدرر (٧ / ٣٦١)

وهي أنها مستودع الرزق ، حيث إن فيها معايش بني آدم وأسباب رزقهم، فالله وحده هو الذي جعل في الأرض المعايش والأسباب المختلفة ليكسب العباد بها أقواتهم ويتجرون ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر(١). وسواء أكانت هذه المعايش بخلق الله تعالى ابتداء كخلق الثمار وغيرها، أو بطريق العمل والاكتساب واتخاذ الأسباب والاتجار فيها، وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل الله وإقداره وتمكينه، فيكون الكل إنعاما من الله تعالى، وكثرة النعم لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد(٢). **يقول الإمام الطبري فى معنى الآية:** "ولقد وطناكم أيها الناس في الأرض وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها ومهادًا تمتهدونها وفراشًا تفترشونها " وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِش " تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب نعمة مني عليكم وإحسانًا مني إليكم "(٣) ، ولا شك أن كل ذلك يقتضى منا الشكر الكثير ، ولكن الشكر من العباد قليل كما قال:" وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ " **ومن ثم عقّب هذا بقوله:** " **قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ** " أي وأنتم قليلوا الشكر على هذه النعم التي أنعمت بها عليكم، لا كثيروه كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها فقد عبدتم سواى، واتخذتم الأولياء والشفعاء من دونى. **وشكر النعمة إنما يكون** بمعرفة المنعم بها ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل، ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه، وتحقيق الأغراض التي أسداها لأجلها(٤) ، **لذلك يقول الإمام الرازى فى قوله:** " **قليلا ما تشكرون** " هذا يدل على أنهم قد يشكرون والأمر كذلك وذلك لأن الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلة عقل كل عاقل ونعم الله على الإنسان كثيرة فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه ، إنما التفاوت في أن بعضهم قد يكون كثير الشكر ، وبعضهم يكون قليل الشكر"(٥).

---

١) ينظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد ملكاوي ص ٢٣٨ ، نشر / مكتبة دار الزمان ، ط /أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٢) ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي (٨ / ١٤٩) ، نشر / دار الفكر المعاصر – دمشق ، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ.

٣) ينظر جامع البيان ٠(٨ / ١٢٥).

٤) ينظر تفسير المراغى (٨ / ١٠٩).

٥) ينظر مفاتيح الغيب (١٤ /م ٢٠٥).

٢ . قوله تعالى:

" وَاذْكُـرُوا إِذْ أَنْـتُمْ قَلِيـلٌ مُسْتَـضْعَفُونَ فِـي الْأَرْضِ تَخَـافُونَ أَنْ يَـتَخَطَّفَكُمُ النَّـاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " سورة الأنفال آيـة ٢٦.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده فى الآيات السابقة بطاعة الله وطاعة الرسول، ثم أمرهم باتقاء المعصية ، أكد ذلك التكليف بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى بين أنهم كانوا قبل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، وذلك يوجب عليهم الطاعة وترك المخالفة.

معانى المفردات والتراكيب:

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ،

وقد اختلف المفسرون في الحال المشار إليها بهذه الآية:

فقيل: هذا خطاب للمهاجرين يذكرهم فيه سبحانه بما كان من ضعفهم وقلتهم، أى: واذكروا أيها المؤمنون من أهل مكة وقتما كنتم مستضعفين من مشركيها، يؤذونكم بالقول والفعل، لضعفكم وقلّتكم وهوانِكم عليها، فكنتم لذلك تخافون دائما أن يتخطفكم مشركو مكة **و** " **المأوى** " على هذا التأويل المدينة والأنصار، " **والتأييد بالنصر** " وقعة بدر وما أنجز معها في وقتها، **و**" **الطَّيِّباتِ** " الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به. **وقيل: حال العرب قاطبة**، يذكرهما الله تعالى بما كانوا فيه من ضعف أمتهم العربية في الجزيرة بين الدول القوية من فارس والروم. فإنها كانت أعرى الناس أجساما وأجوعهم بطونا وأقلهم حالا ونعما، والناس الذين يخاف "تخطفهم " على هذا التأويل فارس والروم، و " **المأوى** "على هذا هو النبوءة والشريعة، **و**" **التأييد بالنصر** " هو فتح البلاد وغلبة الملوك، والطَّيِّباتِ هي نعم المآكل والمشارب والملابس. **والمختار:** لعل الرأى الأول أنسب بالحديث عن غزوة بدر التي جاءت هذه السورة لتفصيل شئونها ، كما أن الرأى الثانى يرده أن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل ، ولأن المسلمين لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبل الهجرة من غيرهم، لأنهم كانوا أدنى

الكفـار مـنهم إلـيهم، وأشـدهم علـيهم يومئـذ، مـع كثـرة عـددهم ، وقلـة عـدد المسلمين(١).

ثم بين الهدف من وراء ذلك الامتنان فقال: " لعلكم تشكرون "

أى لكـي تطيعـوا، وهـذا تـذكير بالنعمـة فـي تقـويتهم بعـد الـضعف، وأمـنهم بعـد الخوف، ونصرهم على أعدائهم، وبسط أرزاقهم أى: قابلوا حالكم التي أنتم عليها الآن بتلك الحالة المتقدمة ليتبين لكم موضع النعمة وتشكروا عليه ، فكأنه عز وجل يريد أن يقول: أعطيت لكم ما رأيتم، فاشكروا الله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عز وجل(٢).

أو لكي تشكروا منته العظيمة وإحسانه التام. بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

فجاء ختام الآية بالحث على شكره عز وجل ، لأنها تضمنت تعديد نعم الله على المؤمنين ، فكأنه تعالى يقول: أي نقلناكم من الشدة إلى الرخاء، بأن نقلهم إلى المدينة، فصاروا آمنين من شر الكفار، ومكنهم فى البلاد ، وأيدهم بنصره يوم بدر ، فنقلهم أيضاً من البلاء إلى النعماء والآلاء، كما أحل تعالى لهم الغنائم بعد أن كانت محرمة على من كان قبل هذه الأمة ، فوسع عليهم فى الرزق ، فكان ذلك أدعى وأحرى أن تشتغلوا بالشكر والطاعة ، فهذه كلها أسباب مستدعية لشكره عز وجل ومن ثم ختم الآية بقوله: **لعلكم تشكرون** " **وفى وجوب مقابلة تلك النعمة بالشكر يقول الإمام البقاعى:** أنه لما كان من أشد العقاب الإذلال، حذرهم بالتذكير بما كانوا فيه من الذل، لأنه أبعث على الشكر وأزجر عن الكفر فقال: " واذكروا " ثم بدأ يعدد النعم ، وبعد أن ذكر هذه النعم كلها ناسب أن تختم **الآية بقوله: "لعلكم تشكرون** " أي ليكون حالكم حال من يرجى شكره، فيكون بعيداً عن المنازعه في الأنفال وذلك إشارة إلى أنهم مهما استمروا على تلك الحالة، كان بإقبالهم على مثل ما أتاهم به وزادهم من فضله أن جعلهم سادة في الدارين(٣) ، **كما يقول ابن عاشور فى تعقيب تلك النعمة بقوله: " لعلكم تشكرون ":** أن هذه الجملة تذييل قصد به حضهم على مداومة

---

١) ينظـر جـامع البيـان (١٣ / ٤٧٨) ، المحـرر الـوجيز (٢ / ٥١٦) ، روح المعـانى (٥ / ١٨٢)..

٢) ينظر الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدى (٢ / ٤٥٣). بتصرف

٣) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٨ / ٢٦٠) بتصرف.

الشكر والطاعة لله عز وجل ، فكأن المولى تبارك وتعالى ينبه عباده بأنهم كلما أعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوه أخذ أمرهم في تراجع ولله عاقبة الأمور(١).

٣ . قوله تعالى:

" رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" سورة إبراهيم آية ٣٧.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بيّن الله تعالى بالأدلة المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه، وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى أصلا، وطلب من رسوله أن يعجب من حال قومه الذين عبدوا الأصنام، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه دعا أن يجعل مكة بلد أمان واستقرار، وأن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكن بعض ذريته عند البيت الحرام ليعبدوه وحده بالصلاة التي هي أشرف العبادات ، والمقصود: إن إبراهيم عليه السلام هو القدوة والنموذج لعبادة الله عز وجل، فليقتد به من ينتمون إليه.

معانى المفردات والتراكيب:

يحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع أنه طلب في دعائه أمورا ، وكان من هذه الأمور التى طلبها إبراهيم قوله:" ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع ". **وقد آثر عليه السلام فى نداءِ ربه صيغة الجمع بقوله:** "**رَبَّنا** " لتقدم ذكره وذكر بنيه فى قوله: "واجنبنى وبنىَّ "، والتعرض لوصف ربوبيته لهم أَدخل فى القبول وإجابة المطلوب(٢) ، **والمعنى:** ربنا إني أَسكنت بعض ذريتي بواد لا ماءَ به ولا زرع، عند المكان الذي أَعددتَه لبيتك المحرم، مع أَن هذا المكان غير صالح للسكنى لفقد الماءِ والزرع، وهو وادي مكة ؛ لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد، فإنها حجرية لا يوجد فيها

١) ينظر التحرير والتنوير (٩ / ٣٢١)بتصرف بالزيادة.
٢) ينظر تفسير أبى السعود (٥ /٥١).

زرع ولا ماء ، وقد أَقدمت على ذلك استجابة لأمرك، وتقربًا إليك، وثقة بأنك سترعى ذريتي بعد أَن لجأت إلى جوارك الكريم ، وإنما أضاف البيت إلى الله تعالى لأنه لا يملكه غيره عز وجل، ولا يُصَلَّى نحوه إلى سواه ،

وفي تسميته بالمحرم وجوه: الأول: أن الله عصمه عن المكاره حيث حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرما لمكانه. **الثاني:** أنه كان لم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب. **الثالث:** سمي محرما،لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه. **الرابع:** أنه حرم على الطوفان أي امتنع منه كما سمي عتيقا ،لأنه أعتق منه فلم يستعل عليه. الخامس: أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل(١).

أقول: وهذه الأسباب كلها محتملة ، فلا مانع من شمول الوصف لكل هذه الأسباب وإرادتها جميعا.

وجملة " ربنا ليقيموا الصلاة " فيها تعليل لإسكان بعض ذريته فى هذه البقعة الجرداء المجاورة للبيت الحرام ، **والمعنى:** ما أسكنتهم في هذا الوادي الموصوف إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بالذكر والعبادة، فما أسكنتهم هنا إلا لهذا الغرض المنافي لعبادة غيرك، ولأن أولى الناس بإقامتها حاضرو البيت المتوجه بها إليه ، وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها، فإن الصلاة سبب لكل خير ، ولأن بيت الله لا يسعه إلا الصلاة وما في معناها وهي الأصل في إصلاح النفس(٢) ، **والتعبير بصيغة الجمع فى قوله: " لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ** ": مع أَنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل يؤذن بأن الله تعالى أَعلمَه أن ولده إسماعيل، سيعيش وتكون له ذرية كثيرة، وسيكون رسولا إليهم ليقيموا الصلاة على شريعته ، ومعنى قوله: "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ " أَى: فاجعل قلوبا من قلوب الناس تسرع إليهم شوقًا وودًّا ليساكنوهم ويعيشوا معهم ،و والأفئدة: جمع فؤاد ؛ وهو القلب عبر به عن جميع البدن ؛ لأنه أشرف عضو فيه ، ومن فى "مِنَ النَّاسِ " تبعيضية، أى اجعل أفئدة بعض الناس تهوى

١) ذكر هذه الوجوه الإمام الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب (١٩ / ١٠٤).
٢) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٤ / ٤٢١).

إليهم ، والمراد: المؤمنون، قال مجاهد: لو قال إبراهيم: أفئدة الناس لازدحمت على البيت فارس والروم والترك والهند ، وقال سعيد بن جبير: لحجته اليهود والنصارى والمجوس(١).

ولما دعا لهم بالدين، دعا لهم بالرزق المتضمن للدعاء لجيرانهم فقال: " **وارزقهم** " أي على يد من يهوي إليهم "**من الثمرات** " أي التي أنبتها في بلادهم.

وقد استجاب الله تعالى لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام، وأول آثار هذه الدعوة: أنه تعالى أنبع ماءَ زمزم، ومرت رفقة من جرهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماءِ، فأشرفوا، فإذا هم بِهَاجَرَ، فقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك(٢) ، كما رزق ذريته وكل من انحاز إليهم بما أَنبت لهم من أَشجار الفاكهة المختلفة بقرى قريبة كالطائف، أو ما يجلب إليهم من الأمصار والأقطار الشاسعة من مختلف الفواكه والثمار، حتى أصبحت لديهم كثيرة موفورة، يجتمع منها عندهم الأنواع المتعددة فى اليوم الواحد، وفى ذلك يقول الله تعالى: " أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا "(٣) ، وهذا من فضل الله وكرمه.

ثم ذكر الغاية من وراء الامتنان بتلك النعم فقال: " **لعلهم يشكرون** " أى: ليكون عونا على عبادته والرغبة فى البقاء فى حراسة حرمه، وليجعل من موطنهم القفر ومنزلهم الموحش مطمح الأنظار ومحط الرحال. وهي لذلك تستوجب منهم أداء مراسم العبودية تامة كاملة شكرا له تعالى وثناء عليه(٤) ، أو ليكون حالهم حال من يرجى شكرهم لما يرون من نعمك الخارقة للعوائد في ذلك الموضع البعيد عن الفضل لولا عنايتك فيشتغلوا بعبادتك لإغنائك لهم وإحسانك إليهم، وقد أجاب الله دعوته ؛ فالآية لتذكير قريش بهذه النعمة الجليلة عليهم ببركة أبيهم الأعظم الذي نهى عن عبادة الأوثان(٥)

---

١) ينظر المحرر الوجيز (٣ / ٣٤٢) ، مفاتيح الغيب (١٩ / ١٠٥).
٢) ينظر تفسير أبى السعود (٥ / ٥٢) بتصرف.
٣) سورة القصص آية ٥٧.
٤) ينظر التفسير الوسيط (٥ / ٥٠٤).
٥) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٠ / ١٢٨).

المطلب السابع

نعمتا السمع والبصر

إنّ من أعظم النعم التي منَّ الله بها علينا لهما نعمتا السمع والبصر، واللتان تعدّان من أكبر النعم التي وهبنا الله إياها، ولولاهما لما سمعنا ولا أبصرنا الأشياء من حولنا، فكم من فاقدٍ لهما يتمناهما، وهما نعمتان تزخر بها نفوسنا وأجسادنا وحياتنا، وتجعلنا دائمي الشكر، والامتنان لله عز وجل ؛ لأن في الشكر أيضاً سعةً في الرزق، وزيادة في النعم ، فالسمع والبصر نعمتان عظيمتان من الله على عباده ، إذ إن جميع المصالح في الدين والدنيا مبنية عليهما، ولذلك يمتن الله على عباده بهاتين النعمتين في كثير من الآيات مبينًا أنه تعالى أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا ثم رزقنا وسائل العلم المعتمد عليها، وهي السمع الذي نسمع به الأصوات والبصر الذي نرى به المرئيات ، وهذا السمع والبصر إن تعطلا عن العمل بأمر الله فلن يستطيع أحد رده لصاحبه ، فمن تمام نعمته سبحانه في خلقه أنه ركب فيهم أدوات تحصيل العلم ؛ لينتفعوا بها في علوم دينهم ودنياهم ، فنعمتان هذا شأنهما ما أجمل أن نقابل خالقهما بشكره عز وجل ، **ومن تمام شكرهما حفظهما وصيانتهما عما يغضب الله تعالى، وتسخيرهما** فيما يرضي الخالق في السراء قبل الضراء، واستعمالهما في طاعة الله عز وجل ، **ومن الآيات التى تشيد بوجوب شكر الله تعالى على هاتين النعمتين:**

١ . قوله تعالى:

" وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" سورة النحل آية ٧٨.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ما يدل على كمال علمه، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له، وذكر ما يدل على كمال قدرته، فصرح بأن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب، أردف ذلك بذكر

الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال:" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا..." الآية.

معانى المفردات والتراكيب:

ذكر سبحانه وتعالى منته على عباده بإخراجه إيَّاهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال: " وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تعلمون شيئاً "**ومعنى قوله:** " **لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً** " أنه لا يظهر أثر العلم عليكم ، ثم إنه بتوسط الحواس الظاهرة والباطنة يكتسب العلوم المتوقفة على التعلق، فالطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسه تنقل الأشياء تدريجا فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكر(١).

والمراد بالسمع: الإحساس الذي به إدراك الأصوات الذي آلته الصماخ، **والأبصار:** الإحساس المدرك للذوات الذي آلته الحدقة. واقتصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهم، ولأن بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحق ، و ثم ثلث بالأفئدة، وهى: العقل مقر الإدراك كله، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها(٢).

وبيان ذلك: ذلك أن جمهور الحكماء زعموا أن الإنسان في مبدأ فطرته خال عن المعارف والعلوم إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر والفؤاد وسائر القوى المدركة حتى ارتسم في خياله بسبب كثرة ورود المحسوسات عليه حقائق تلك الماهيات وحضرت صورها في ذهنه، ثم إن مجرد حضور تلك الحقائق إن كان كافيا في جزم الذهن بثبوت بعضها لبعض أو انتفاء بعضها عن بعض فتلك الأحكام علوم بديهية، وإن لم تكن كذلك بل كانت متوقفة على علوم سابقة عليها ولا محالة تنتهي إلى البديهيات قطعا للدور أو التسلسل فهي علوم كسبية. وظهر أن السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس الإنسانية هو أن الله تعالى أعطى الحواس والقوى الدرّاكة للصور الجزئية(٣).

---

١) ينظر التحرير والتنوير (١٤ / ٢٣٢)
٢) ينظر التفسير الوسيط (٨ / ٢٠٥).
٣) ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤ / ٢٩١).

يقول ابن عجيبة: "وإنما قدَّم في جميع القرآن نعمة السمع على البصر؛ لأنه أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيرًا فيه، وأعم نفعًا منه في الدين ؛ إذ لو كانت الناس كلهم صمًا، ثم بُعِثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر في كثير من الأحكام. **كما أفرده وجمع الأبصار والأفئدة** ؛ لأن متعلق السمع جنس واحد وهي الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب ؛ معاني ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع، والله تعالى أعلم(١).

ثم ختم الآية بما يوجب الشكر على هاتين النعمتين وأنه لا يتم شكر الإنسان إلا بتوحيده لله وعبادته وإخلاص الطاعة له فقال: " **لعلكم تشكرون**" أى: فعلنا ذلك بكم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم دون الآلهة والأنداد ، فجعلتم له شركاء في الشكر ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمةٍ شريك"(٢).أو لكي تشكروا الله تعالى على نعمة هذه الآلات، وشكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، من استماع كلام الله تعالى، وأحاديث رسوله – صلى الله عليه وسلم وحكم أوليائه، وما ليس فيه ارتكاب منهي، ومن النظر إلى آيات الله سبحانه، والاستدلال بها على وجوده ووحدته وعلمه وقدرته، فمن استعملها في غير ما خلقت لأجله فقد كفر جلائل نعم الله تعالى، وخان في أماناته٠(٣). فما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه على الوجه الأكمل ، **ولذلك ذكر ابن عاشور أنهما نعمة تستحق الشكر من خالقها حيث قال:** " وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه وعمل عقله فيما يدله

١) ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبى العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة تـ سنة ١٢٢٤هـ (١ / ١٥٢) ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، نشر /الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة الطبعة: ١٤١٩ هـ
٢) ينظر جامع البيان (١٧ / ٢٦٥).
٣) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٥ / ٣١٣)..

علـى الحقـائق، ليـسلم مـن الخطـأ المفـضي إلـى الهـلاك والأرزاء العظيمـة، فهـي نعمة كبرى. ولذلك قال تعالى عقب ذكرها " لعلكم تشكرون" ٠([1]).

٢ . قوله تعالى:

" وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " سورة المؤمنون آية ٧٨.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بيّن الله تعالى إعراض المشركين عن تدبر القرآن وفهم أدلة وجود الله ووحدانيته وقدرته، أعقبه ببيان أوجه النعم العظمى على عباده، ليسترشدوا بها على وجود الله وقدرته. وتلك النعم هي الأسماع والأبصار والأفئدة وهي العقول والأفهام التي يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء([2]).

معانى المفردات والتراكيب:

يبين الله تعالى فى هذه الآية امتنانه على عباده بنعمة عظيمة دالة على قدرته وحكمته وعلمه والداعية إلى شكره عز وجل فقال: " **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ**" ، **والمعنى:** وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، وَالأبْصَار لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم وَالأفْئِدَةَ وهى العقول التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ ([3]).

وقدم السمع: لكثرة منافعه، وأفرد لأنه مصدر في الأصل ولم يجمعه الفصحاء في الأكثر، **وقيل:** أفرد ؛ لأنه يدرك به نوع واحد من المدركات وهو الأصوات بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك به أنواع شتى من التصورات والتصديقات([4]).

---

١) ينظر التحرير والتنوير (١٤ / ٢٣٣).
٢) ينظر التفسير المنير (١٨ / ٨٢).
٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٥٥٦.
٤) ينظر روح المعانى (٩ / ٢٥٦ ، ٢٥٧)..

ثم بيّن تعالى أنه مع هذا الإفضال على عبيده وإنعامه عليهم بهذه النعم لا يقومون بشكرها كما ينبغي مما استدعى تبكيتهم في كفر المنعم بها فقال تعالى: " قليلاً ما تشكرون" أى: لمن أولاكم هذه النعم التي لا مثل لها، ولا يقدر غيره على شيء منها، مع ادعائكم أنكم أشكر الناس لمن أسدى إليكم أقل ما يكون من النعم التي يقدر على مثلها كل أحد، فكنتم بذلك أنزل من الحيوانات العجم صماً بكماً عمياً(١) ، **وقيل:** شكراً قليلاً غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لأن العمدة في الشكر: صرف تلك القوى– التي هي في أنفسها نِعمَ باهرة– إلى ما خلقت له، وأنتم تنتحلون بها ضلالاً عظيماً (٢) ، وكأن الله تعالى أراد أن يلفت أنظار الناس إلى وجوب شكره عز وجل واهب هذه النعم شكراً كاملاً يليق بجلاله تعالى.

وعلى نحو هذه الآية ورد قول الله عز وجل:
" قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ" سورة الملك آية ٢٣. وهما تلوّحان إلى أن المولى تعالى أراد أن ينبه عباده إلى أن التذكير بهاتين النعمتين يوجب الشكر وأن شكرنا قليل عليهما ، ولا يتم شكر الإنسان إلا بتوحيده لله وعبادته وإخلاص الطاعة له..

٣ . قوله تعالى:
" الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " سورة السجدة آية ٧ ، ٨ ، ٩.

مناسبة الآيات لما قبلها:
لما ذكر الله تعالى الدليل على الوحدانية من الآفاق بقوله تعالى: "خلق السموات والأرض وما بينهما " ذكر هنا الدليل عليها من الأنفس بقوله تعالى:" الذي أحسن كل شيء خلقه....." الآية.

١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣ / ١٧٣).
٢) ينظر البحر المديد (٣ / ٥٩٢).

معانى المفردات والتراكيب:

يخبر المولى عز وجل فى هذه الآيات عن دلائل كثيرة على توحيده وكمال قدرته

فقال: " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ " وفى معنى الآية أقوال خمسة: الأول: جعله حَسَناً ، وهو قول قتادة ، **الثاني:** أحكم كل شيء، وبه قال مجاهد. **الثالث:** أحسنه، ولم يتعلمه من أحد، كما يقال: فلان يُحْسِن كذا: إذا عَلِمه، وهو قول السدي ومقاتل ، **الرابع:** أن المعنى ألهم خَلْقه كلَّ ما يحتاجون إليه، كأنه أعلمهم كل ذلك وأحسنهم، وهو قول الفراء ، **الخامس:** أحسن إلى كل شيء خَلْقه فكان خلقه إحساناً إليه وقد ذكره الماوردى (١). **قال الإمام الطبري:** وأولى الأقوال في ذلك قول من قال: أحكم وأتقن ؛ لأنه لا معنى لذلك إلا أحد الوجهين: إما من معنى الإحكام والإتقان أو معنى التحسين الذي هو معنى الجمال والحسن، فلما كان في خلقه ما لا يشك في قبحه وسماجته، علم أنه لم يعن به أنه أحسن كل ما خلق، ولكن معناه أنه أحكمه وأتقن صنعته(٢).

ولما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: " وبدأ خلق الإنسان من طين " أى: خلق أبا البشر آدم عليه السلام من طين ، فالمراد بالإنسان: آدم – عليه السلام –، ومعلوم أن تسويته، ونفخ الروح فيه كان قبل جعل نسله من سلالة من ماء مهين، لكن لما كان المقصود ذكر قدرة الله عز وجل في مبدأ خلق آدم وخلق نسله، عطف ذكر أحدهما على الآخر، وأخر ذكر تسوية آدم ونفخ الروح فيه، وإن كان ذلك متوسطا بين خلق آدم من طين وبين خلق نسله(٣) ،

ولما نبه إلى خلق آدم شرع فى ابتداء خلق ذريته فقال: " ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ " أي ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من

---

١) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣/ ٤٣٨).
٢) ينظر جامع البيان (٢٠ / ١٧١)..
٣) ينظر تفسير ابن رجب المسمى روائع التفسير لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ (٠٢ / ٨٣) نشر/ دار العاصمة - المملكة العربية السعودية ط / أولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م.

بين الصلب والترائب فى كل من الرجل والمرأة كما دل على ذلك علم الأجنة ([1]) ، **وإنما سمى ماء** الرجل سلالة ؛ لانسلاله من صلبه ، والسلالة الصفوة التي تنسل من غيرها([2])

ثم أشار إلى عظمة ما بعد ذلك من خلقه وتطويره فقال: " **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ**" أي ثم عدّله بتكميل أعضائه فى الرحم، وتصويره على أحسن صورة، ونفخ فيه من روحه، وجعلها تتعلق ببدنه، فيبدأ يتحرك، وتظهر فيه آثار الحياة، ثم ينطق ويتكلم ،، **وإضافة الروح إلى ذاته** تعالى دلالة على أنه خلق عجيب، لا يعلم حقيقته إلا هو، وهي إضافة تشريف كبيت الله، وناقة الله، فيا له من شرف ما أعلاه، ففيه إشعار بأنه خلق عجيب وإن له شأناً ([3]).

ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد مخاطباً للذرية بقوله تعالى: " **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** " **وفيه** التفات من المفرد الغائب إلى الجمع المخاطب، وتعديد للنعم، وهي شاملة لآدم كما أن التسوية ونفخ الروح شامل له ولذريته([4]). **وإنما جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع،** لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل ، واحد فإن الإنسان لا يضبط في زمان واحد كلامين، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فإن الصوت من أي جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة، فذكر القوة في الأذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار([5]). **وجاء الترتيب هكذا بتقديم السمع ثم البصر ثم**

---

١) ينظر تفسير المراغى (٢١ /١٠٦ ٩).
٢) ينظر تفسير القرآن لأبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ (٢ / ٥٤٨) ، ت:عبد الله بن إبراهيم الوهبي، نشر/ دار ابن حزم – بيروت ، ط أولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م
٣) ينظر السراج المنير (٣ /٢٠٥).
٤) ينظر البحر المحيط (٨ / ٤٣٣).
٥) ينظر مفاتيح الغيب (٢٥ / ١٤٢).

الفؤاد، لما ثبت من أن الطفل بعد الولادة يسمع ولا يبصر مدى ثلاثة أيام، ثم يبتدىء يبصر، ثم يبتدىء يدرك ويميز، كما هو مشاهد(١).

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن الإنسان قابل هذه النعم بالكفران، إلا من رحم الله تعالى، فقال: " **قَلِيلاً ما تشكرون** "، **أى زمانًا قليلًا وأنتم تشكرون** ربكم على هذه النعمة، التي أنعم بها عليكم باستعمالها في طاعته، وعمل ما يرضيه، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله، وتركهم لشكرها، إلا فيما ندر من الأحوال(٢).

ولذلك يقول العلامة أبو السعود: " خلق لمنفعتِكم تلك المشاعرَ لتعرفُوا أنها مع كونِها في أنفسِها نعماً جليلةً لا يُقادر قدرُها وسائلُ إلى التَّمتعِ بسائرِ النِّعمِ الدِّينية والدُّنيويةِ الفائضةِ عليكم ، وتشكروها بأنْ تصرفُوا كلاًّ منها إلى ما خُلق هو له فتُدركوا بسمعِكم الآياتِ التنزيليةَ الناطقةَ بالتَّوحيدِ والبعثِ وبأبصارِكم الآياتِ التكوينيةَ الشاهدةَ بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيقتهما "(٣). **فعلى العاقل أن يعرف النعمة والمنعم ويجتهد فى خدمة الشكر** حتى لا يكون من أهل البطالة وإذا كان من أهل الشكر للنعم الداخلة والخارجة من القوى والأعضاء وغيرهما فالله تعالى يشكر له أى يقبل طاعته ويثنى عليه عند الملأ الأعلى ويجازيه بأحسن الجزاء وهو الجنان ودرجاتها ونعيمها الأبدى (٤).

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الذين مدحهم بالشكر والطاعة فى كل ساعة لا ممن ذمهم بتضييع الحقوق وإفساد الاستعداد والسعى فى الأرض بالفساد..

---

١) ينظر تفسير المراغى (٢١ / ١٠٦).
٢) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (٢٢ / ٣٤٣)..
٣) تفسير أبى السعود (٧ / ٨١).
٤) ينظر تفسير روح البيان (٧ / ١١٣).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله الذي أكرمني، ووفقني، ويسر لي إتمام هذه الدراسة التي عشت معها في رحاب القرآن الكريم، في لحظات إيمانية عطرة أمضيتها مع شكر نعمة المنعم جلَّ شأنه.

وفي هذه الخاتمة الموجزة سأعرض بين يدي القارئ العزيز أهم النتائج التي توصلت إليها، وذلك على النحو التالي:

١- أن أهم أسباب دوام النعمة هو الشكر، وهنا يؤكد البحث على اهتمام القرآن الكريم به، ولذلك أفرد له مساحةً واسعةً بين آياته وسورِه.

٢- تجلَّت منزلةُ الشكر في القرآن الكريم، وظهرت أهميتُه في تحصيل النِّعم ودوامها ، وأن شكر الشاكر يعود نفعه عليه، وأن الله سبحانه غني عن الشكر ولا ينفعه شكر الشاكر كما لا يضره كفر الكافر.

٣- أن المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعم الجليلة التى ذكرت بعضها فى ثنايا هذا البحث هو دعوة العباد لشكر الله تعالى والاعتراف بوحدانيته وإفراده بالعبادة وإخلاص الطاعة له سبحانه.

٤ -ظهرت أهم الأساليب التي اتبعها القرآن الكريم للترغيب في شكر النعمة والحض عليه، وظهر تنوع النعمة وكثرتُها، مما لا يدع أثارة من شك لدى كل ذي بصر وبصيرة.

٥ . ظهر لى من خلال هذا البحث أن نعمة الهداية للإسلام أعظم نعمة ، فقد ذكرها الله تعالى فى سياق إكمال الدين وإتمام النعمة.

٦- أن نعمة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم النعم التى منَّ الله بها على أهل الأرض حيث هدى به البشرية من الضلالة إلى الهدى.

٧ – أن نعمة التيسير فى الفرائض والتكاليف هى مبدأ شرعى وسمة لهذه الشريعة المحمدية ولا ريب أنها نعمة تستحق الشكر.

٨ – أن نعمتى الليل والنهار وتعاقبهما لدليل واضح على فضله تعالى ورحمتة بعباده.

٩ – أن نعمة خلق الأرض وتمكين الإنسان من الاستقرار فيها ، والتصرف بما فيها من خيرات ، والانتفاع بمنافعها الكثيرة نعمة تستحق الشكر.

١٠ – أن نعمة الماء آية من آياته الجليلة التى لا غنى للناس عنها ؛ لأنها مادة حياتهم وعنصر نمائهم وسبب بقائهم ، لذا فهى أيضا تستحق الشكر.

١١– أن نعمة تسخير البحر للإنسان تدل دلالة واضحة على كمال الخالق وعظمة المنعم جلَّ وعلا ، وقد جاءت فى سياق الامتنان والتفضل والإنعام والإكرام منه تعالى على عباده.

١٢ – أن نعمة خلق الأنعام وجعلها ذات منافع كثيرة للإنسان من تذليل وركوب وأكل لحمها وشرب لبنها والانتفاع بجلودها منَّة جليلة تستحق الشكر من واهبها.

١٣ – أن نعمة إيجاد الرزق على هذه الأرض للعباد وتكفله سبحانه بهم أمر قاطع ووعد إلهى لا يتغير مما يجعلهم يطمئنون ويسكنون ويفرغون لعبادته عز وجل.

١٤ – ظهر لى من خلال هذا البحث مقدار تكريم الله للإنسان من خلال خلقه وتصويره في أحسن صورة، وتكريمه بالعقل على سائر المخلوقات، ومنحه هاتين النعمتين" السمع والبصر" اللتان تعدان من أكبر النعم التى وهبه الله تعالى إياهما ليستطيع التعرف على الأشياء والربط بينها، فكم من فاقد لهما يتمناهم إذ إن جميع المصالح فى الدين والدنيا مبنية عليهما ، لذا فالواجب يحتم على الإنسان أن يستخدم عقله وحواسه فيما يعود عليه بالنفع، وفيما يرضي الخالق سبحانه ولا يسخطه.

وبعد، فهذه محاولة متواضعة لتوضيح معالم الشكر لله تعالى على ما أولانا وأنعم به علينا من النعمة الظاهرة والباطنة كما بينها القرآن الحكيم، فإن كنت قد وفقت في عرضها فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فحسب صدق نيتي وعيشي في ظلال القرآن الكريم ردحاً من الزمن، فاللهم اجعلنا من أهل القرآن وخاصته واجعلنا من عبادك الشاكرين في الدنيا والآخرة، إنك سبحانك ولي ذلك ومولاه، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١ . إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام لابن حجر الهيثمى بدون طبعة.
٢ . أحكام القرآن لأبى بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، نشر دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ.
٣ . أحكام القرآن لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ ، تحقيق: محمد صادق القمحاوي – نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٠٥ هـ.
٤ . إحياء علوم الدين لأبى حامد محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ ، نشر: دار المعرفة – بيروت.
٥ . أسباب نزول القرآن لأبى الحسن علي بن أحمد الواحدي، المتوفى سنة: ٤٦٨هـ ، تحقيق / عصام بن عبد المحسن الحميدان ، نشر / دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة /الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.
٦ . إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، ط/ دار الكتب العلمية . بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ..
٧ . الأم لأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، نشر دار المعرفة . بيروت ١٤١٠ هـ.
٨ . البحر المحيط في التفسير لأبى حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ ، تحقيق: صدقي محمد جميل ، نشر: دار الفكر – بيروت ، طبعة: ١٤٢٠ هـ.
٩ . البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبى العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤هـ ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، نشر /الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة طبعة: ١٤١٩ هـ.
١٠ . التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ ، ط / الدار التونسية للنشر . تونس عام ١٩٨٤ م.
١١ . التسهيل لعلوم التنزيل لأبى القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤١هـ (٢ / ٢٩٩) ، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي ، نشر / شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، الطبعة الأولى – ١٤١٦ هـ.

١٢ . التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ ، نشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، الطبعة / الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م.
١٣ . التفسير البسيط لأبى الحسن الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، نشر عمادة البحث العلمى ، جامعة الإمام محمد بن سعود الطبعة الأولى / ١٤٣٠ هـ..
١٤ . التفسير الكبير المسمى "مفاتيح الغيب" لأبى عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري المتوفى: ٦٠٦هـ ، ط / دار إحياء التراث العربى . بيروت ، الطبعة / الثالثة ١٤٢٠ هـ.
١٥ . التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي ، نشر / دار الفكر المعاصر – دمشق ، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ.
١٦ . التفسير الواضح لمحمد محمود حجازى ، نشر / دار الجيل الجديد – بيروت ، ط / العاشرة – ١٤١٣ هـ.
١٧ . التفسير الوسيط لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، ط / دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة /الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.
١٨ . التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى ، ط/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى.
١٩ . الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، نشر/ دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.
٢٠ ـ الجنى الدانى فى حروف المعانى لأبى محمد بدر الدين المرادى المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، ط / دار الكتب العلمية . بيروت ط / أولى ١٤١٣ هـ
٢١ . الخيل والفروسية لسلامة محمد أحمد ، بدون طبعة.
٢٢ . السراج المنير لشمس الدين الخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ ، مطبعة بولاق " الأميرية " القاهرة ١٢٨٥ هـ.
٢٣ـ الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي للدكتور مُصطفى الخِنْ، الدكتور مُصطفى البُغا، علي الشّرْبجي ، نشر / دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، ط الرابعة، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

٢٤ . الفوائد لمحمد بن أبـي بكر ابن قيم الجوزيـة المتوفى سنة ٧٥١هـ ،و نـشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة / الثانية ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م.
٢٥ . القاموس المحيط لمجد الدين أبو طـاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، نشر / مؤسسة الرسـالة للطباعـة والنـشر والتوزيـع، بيـروت – لبنـان الطبعـة ، الثامنـة١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م
٢٦ . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبـى القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، نشر: دار الكتـاب العربـي – بيروت ، الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
٢٧. الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبـى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ ، تحقيق: الإمام أبـي محمد بن عاشور ، نشر: دار إحيـاء التراث العربي، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م.
٢٨ـ المحـرر الـوجيز لابـن عطيـة الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، ط / دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٢٢ هـ.
٢٩ . المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ ، نشر / المكتبة العلمية . بيروت بدون تاريخ.
٣٠ . المفردات في غريب القرآن لأبـى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصـفهانى المتوفى سنة: ٥٠٢هـ ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي ، نشر/ دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة / الأولى – ١٤١٢ هـ.
٣١ . بحر العلوم لأبـى الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ بدون طبعة.
٣٢ . تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ ، نشر / دار الهداية ،
٣٣ . تفسير ابن رجب المسمى روائع التفسير لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجـب الحنبلـي المتـوفى سـنة ٧٩٥هـ ، نـشر/ دار العاصـمة – المملكـة العربيـة السعودية ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ – ٢٠٠١ م.
٣٤٤ . تفسير القرآن لأبـى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ ، تحقيق:عبـد الله بـن إبـراهيم الـوهبي ، نـشر/ دار ابـن حـزم – بيـروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٥ . تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، ط / دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة / الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م ، تحقيق: سامى بن محمد سلامة.
٣٦ . تفسير الشيخ الشعراوى المتوفى سنة ١٤١٨ هـ ، نشر مطابع أخبار اليوم سنة ١٩٩٧ هـ.
٣٧ . تفسير المراغى للشيخ أحمد مصطفى المراغى المتوفى سنة ١٣٧١ هـ ، ط / مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٦٥ هـ..
٣٨ . تفسير النسفى المسمى " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " لأبى البركات عبد الله النسفى المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، نشر / دار الكلم . بيروت ، ط / أولى ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م.
٣٩ . تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي ،نشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م..
٤٠ . تفسير روح البيان لإسماعيل حقى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ ، ط / دار الفكر . بيروت.
٤١ . تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، ط / دار إحياء التراث العربى . بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠١ م.
٤٢ . تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لأبى عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ ، نشر/ وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٣ . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، نشر / مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.
٤٤ . حاشية الشيخ محى الدين زادة على تفسير البيضاوى ، ط / المكتب الإسلامى.
٤٥ . روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام للصابونى ، نشر مكتبة الغزالى . دمشق الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ.
٤٦ . روح المعانى لشهاب الدين محمود الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ، دار الكتب العلمية – بيوت ط / أولى، ١٤١٥ هـ.

٤٧ . زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج عبد الرحمن الجوزى المتوفى سنة٥٩٧ هـ ، ط / دار الكتاب العربى . بيروت ط / أولى ١٤٢٢ هـ.
٤٨ . زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد المعروف بأبى زهرة المتوفى سنة ١٣٩٤ هـ ، ط / دار الفكر العربى.
٤٩ . شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ ، نشر / دار المعرفة، بيروت . لبنان ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م..
٥٠ . صحيح ابن خزيمة لأبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابورى المتوفى سنة ٣١١هـ ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي ، نشر: المكتب الإسلامي – بيروت.
٥١ . صحيح البخارى المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي الموفى سنة ٢٥٦ هـ ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر
نشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٥٢ . صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري المتوفى سنة٢٦١هـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٥٣ . صفوة التفاسير للصابونى ، ط / دار القرآن الكريم . بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨١ م.
٥٤ . عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد ملكاوي ، نشر / مكتبة دار الزمان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
٥٥ . عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ لأبى العباس شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، طبعة / دار الكتب العلمية ، ط/ أولى ١٤١٧ هـ . ١٩٩٧ م.
٥٦ . غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن النيسابورى المتوفى سنة ٨٥٠ ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات ، نشر / دار الكتب العلمية . بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

٥٧ . فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٥٢٠ هـ ، ط / دار الكلم الطيب . دمشق بيروت ، دار ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.
٥٨ . لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ ، ط / دار صادر . بيروت ١٤١٤هـ.
٥٩ . مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (١٩ / ١٠٠) ط / الأوقاف السعودية ، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ط / ١٤٢٥ – ٢٠٠٤
٦٠ . مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، ط / مكتبة الخانجى . القاهرة ١٣٨١ هـ ، تحقيق: محمد فؤاد سزكين.
٦١ . محاسن التأويل لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ ، تحقيق: محمد باسل عيون السود نشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.
٦٢ . مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي المتوفى سنة: ٦٦٦هـ ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد ، نشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا ، الطبعة / الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٦٣ . مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ ، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي ، نشر: دار الكتاب العربي –الطبعة / الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م ،
٦٤ . مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري المتوفى سنة١٣١٦هـ ، تحقيق: محمد أمين الصناوي ، نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط /أولى – ١٤١٧ هـ.
٦٥ . مسند الإمام أحمد بن حنبل لأبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المتوفى سنة ٢٤١هـ ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون نشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة / الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
٦٦ . معالم التنزيل لمحيي السنة، أبى محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المتوفى سنة٥١٠هـ ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ.
٦٧ . معانى القرآن لأبى الحسن المجاشعى المعروف بالأخفش المتوفى سنة ٢١٥ هـ ، ط / مكتبة الخانجى . القاهرة ط / أولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٦٨ . معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق إبراهيم الزجاج المتوفى سنة٣١١ هـ ، ط / عالم الكتب ـ بيروت ، ط / أولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
٦٩ . معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق إبراهيم الزجاج المتوفى سنة٣١١ هـ ، ط / دار الحديث . القاهرة ، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤ م.
٧٠ . معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس المتوفى سنة: ٣٩٥هـ ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارو ن ، نشر/ دار الفكر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٧١ . مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ ، نشر / دار الكتب العلمية – بيروت.
٧٢ . نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ ، نشر/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.